روّاد خالدون

للأستاذ

محمود بن الشريف



الناشر

دار نهضة مصر بالقاهرة

مطبوعات دار سعد مصر

روّاد خالدون

للأستاذ

محمود بن الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كثيرون يمرون فى الحياة .. ولا تأبه بهم الحياة .

يعيشون على هامشها كالهوام .. أو كالسوائم الهائمة فى بيداء تضرب فيها بغير هدف .. ولا غرض .. ولا غاية !!

يقضى الواحد منهم .. فلا تتحرك الدنيا ولاتهتز .

وقليل يرغمون الأيام ، ويرغمون التاريخ على أن يكتب فى صفحاته ما يريدون ، أولئك هم الروّاد أصحاب الرسالات الذين يؤمنون بها ، ويعتقدون فيها ، ويعملون لها .

يغرون البشر بالفضيلة والبر .. أو يحضون على الخير .

أو يحررون الجموع من إسار الضعف وقيود المهانة ..

أو يغمطون الإنسانية عن نزواتها ونزعاتها ..

أو يوجهون إلى حق وعلم وجمال وعمل .

هم الأعلام الذين انفقوا حياتهم فى خدمة العلم والفن والفكر ، فأدوا الخدمات الجلى فى هاتيك المجالات ..

كدّوا ... وجدّوا ... وعبدوا الطرق ... وحملوا المشاعل حتى أضاءوا ميادين الثقافة والأدب بما قدّموا من آثار وما خلفوا من روائع .

قد يفرقهم دين أو جنس أو عقيدة إلا أنه تضمهم رابطة ، وتجمعهم آصرة ، ويوحد بينهم هدف ، فهم رواد للإنسانية ، وحملة أقلام ، ومبدعو آراء ، وقادة أفكار ، ودعاة إلى المثل والقيم ، وهداة الأجيال .

شخصياتهم مدججة بالمعرفة ، وطاقاتهم مشحونة بالعمل والمجاهدة ، وأرواحهم مؤهلة لتشرق وتنير .

فكان من بعض حقهم علينا — بل من أول حقهم علينا وهم الخالدون — أن نسبح بذكرهم نظير ما أدوا .. وأن نعرض نواحى من حياتهم ومناحى من سيرهم ؛ لتكون هدفاً يحتذى ، ومنهاجاً يتبع ، ونبراساً يضىء الجادة للسالكين سبل المجد .. والعزة .. والخلود .

الشيخ الذي لا يحني رأسه للعاصفة

« إن الدين فى كتاب الله غير الفقه ، وإن من الإسراف فى التعبير أن يقال عن الأحكام التى استنبطها الفقهاء، وفرعوا عليها ، واختلفوا فيها ، وتمسكوا بها حيناً ورجعوا عنها أحياناً إنها أحكام الدين ، وأن من أنكرها فقد أنكر شيئاً من الدين . فإنما الدين هو الشريعة التى أوصى الله بها إلى الأنبياء جميعاً .

أما القوانين المنظمة للتعامل ، والمحققة للعدل ، والدافعة للحرج فهى آراء للفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات ، وتبعاً لاختلاف الظروف والبيئات . ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه ، مع ما نرى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض وتفنيد كل لآراء مخالفيه وعدها باطلة — لحقت علينا كلمة الله « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

صيحة جريئة أطلقها إمام مصلح فى رحاب أقدس بيئة علمية ، ورأى بكر أعلنه الإمام محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر فى ساحة كلية الشريعة الإسلامية عند مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة الطلاب المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة الأستاذية فى الشريعة الإسلامية سنة ١٩٤١

* * *

والإمام المراغى مصلح مفكر وهبه الله فكراً رشيداً وقلباً جريئاً وشخصية إسلامية ناضجة ، وعقلية راجحة تساير روح الدين وتناجز ما يتنافى مع تعاليمه ، وما يتجافى مع أصوله وقواعده .

تخرج من الأزهر فى أغسطس سنه ١٩٠٤ وعمره ثلاث وعشرون سنة ، وقضى فى التدريس شهرى سبتمبر وأكتوبر من هذه السنة فقط . وكان فى تدريسه كما قال عنه زميله ومعاصره الشيخ « عبد المجيد الشاذلى » جيد العبارة واسع الأفق ، عميق التفكير »

وفى مستهل شهر نوفمبر من ذلك العام عين قاضياً

لمديرية دنقلا بحكومة السودان ، وقضى فى منصبه هذا ثلاث سنوات ، هبت بعدها ريح الخلاف بينه وبين قاضى القضاة والسكرتير القضائى ... وكانت ريحاً عاتية عاصفة لم تنل من المراغى شيئاً ؛ لأنه قابلها بصلابة وقوة . وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن قذف فى وجوه هؤلاء بكتاب استقالته . وعرف عنه حكام السودان عزة نفسه ، وقوة شخصيته ، وعزمته فى الحق التى لا تلين ، فنادوا بإعادته للسودان مرة أخرى على أن يكون قاضياً للقضاة ، وأذعن خديوى مصر إذ ذاك لهذه الرغبة وأصـــدر أمره بتحقيقها سنة ١٩٠٨

وبدأ نجم المراغى يلمع منذ أن تولى ذلك المنصب الكبير فى السودان ، وقد ضرب أروع المثل على أنه السياسى المحنك والوطنى الغيور . وعندما اعتزمت حكومة انجلترا أن تحتفى فى الهند بتنصيب الملك « جورج الخامس » امبراطوراً على الهند وصدرت الأوامر إلى كبار موظفى حكومة السودان بأن يسافروا إلى الشاطىء السودانى ، لأن الباخرة التى تقل الملك إلى الهند ستمر بهم ، وسيكونون فى استقباله.

وعلم المراغى أنه مدعو بحكم منصبه ليكون فى استقبال الملك . وعلم كذلك أن النظام الذى وضعته وزارة الخارجية البريطانية يقضى ألا يصعد إلى الباخرة سوى الحاكم العام وأن كل من عداه سيمر فى محاذاة الباخرة ويحظى برؤية الملك وتحيته من بعيد .

ويبهت الحاكم العام حينما يرى أمامه الإمام المراغى وهو يخبره فى عزة وكرامة بأنه إذا أصرت وزارة الخارجية الإنجليزية على هذا النظام فإنه لن يذهب إلى الميناء . ويبرق الحاكم العام بذلك إلى حكومته ، فتبرق بدورها إليه بأن النظام قد عدل وأنه سيصعد إلى الباخرة رجلان هما : الحاكم العام ، وقاضى قضاة السودان . وأنه قد اتخذت الاجراءات لاخبار حاشية الملك بهذا التعديل إذ كانت الباخرة فى عرض البحر حينذاك . وقد سجل الإمام بهذا الموقف أروع السطور فى سجل الاعتزاز بالكرامة والشخصية .

* * *

ورجع المراغى إلى مصر عندما جرفتها ثورة سنة ١٩١٩

ليسهم بنصيبه فيها ، وظل يترقى فى مصر مناصب سلك القضاء الشرعى إلى أن عين رئيساً للمحكمة العليا سنة ١٩٢٣؛ وتولى مشيخة الأزهر للمرة الأولى سنة ١٩٢٨ . فوجه الأزهر إلى الثورة على الرجعية والجمود وعلى الجهل والتقليد ومضى قدماً فى طريق الاصلاح لايبطىء به شىء ، بل كان له فى ميدان الإصلاح نشاط عظيم جعله يسبق القوانين أحياناً ؛ فينفذ مشروعاته قبل صدور قانون بها .

ومن يتتبع خطواته فى الاصلاح يجدها خطوات واسعة موفقة يرجع إليها الفضل من غير ريب فى كثير مما يتمتع به الأزهر الآن من خير ؛ فقد أعد قانون الأزهر الذى يسير عليه إلى اليوم ، وأعد مشروع بناء كليات الأزهر ومعاهده وأنشأ قسم الوعظ والإرشاد ، ووضع أساساً لمجلة راقية تصدر باسم الأزهر لتنشر بين الناس ثقافته وتعلن رأيه فى المشكلات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وتهدى الأمة إلى أقوم السبل فى دينها ودنياها ، وأدخل فى مناهج التعليم بالأزهر علوما وكتباً ما كان الأزهريون يعرفونها من قبله . فسرت بفضله حياة جديدة فى جسد الأزهر

القديم ، وبفضله آمن الناس بأن فى الأزهر حيـــاة وأن له وجوداً .

وفى سنة ١٩٢٨ فى ولايته الأولى لأمور الأزهر قدم إلى أولى الأمر مذكرة صريحة ضمنها زبدة رأيه فى إصلاح تلك الجامعة منهاجاً وغاية ، حمـل فى مطلعها على العلماء الذين استناموا للراحة واستكانوا إلى الكسل ورضوا بالتقليد وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس . وأبان أن مهمة العلماء الحقيقية شاقة تتطلب معرفة ما فى الأديان السابقة ، ومعرفة مايجد فى الحيـاة من معارف وآراء ، وتتطلب فوق ذلك كله فهم الإسلام نفسه من ينـــابيعه الأولى فهماً صحيحاً .

وحكم بأنه لايوجد دواء أنجع من الدين لإصـلاح أخلاق الجماهير ؛ لأن العامة تتقبل أحكام الدين وأخلاقه بسهولة ، والدعاة إلى الفضيلة قديما وحديثاً يلجأون إلى الأديان يتخذونهـا وسائل للاصـلاح ، بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بداً من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بها ؛ كل ذلك لأن حياة

المجتمعات لاتدين لنوع من أنواع الاصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الايمان . وقال إن الخلق هو العمود الفقرى للأمم لايمكنها أن تنهض بغيره وأسهل طريقة لتكوينه هو طريق الدين إذا أصلح تعليمه وهذب دعامته . وقد كان الأزهر مصدر أشعة نور العلوم الدينية والعربية إلى البلاد الإسلامية وقد أصابه ما أصاب غيره فى الشرق من خمول وضعف ، فيجب على مصر — وهى تحمل راية الأمم الإسلامية أن تنق المصباح الأزهرى من الأكدار ، وأن توجد له جهازاً قوياً يستمد نوره منه على طريقة تتناسب مع ماجد فى العالم من تطور فى العلم ، وفى طريق البحث والاستدلال .

وبعد أن نادى فى مذكرته بوجوب تهذيب العقائد والعبادات وتنقيتها مما جد فيها وابتدع ، أوصى فى النهاية بأن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة ، خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة وأن تدرس الأديان ليقابل مافيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ،

ليظهر للناس يسره وقداسته وامتيازه عن غيره في مواطن الاختلاف ..

* * *

وما كان يبغي الملك فؤاد للأزهر تقدما وصلاحا !! بل كان جل همه أن يبقيه على حالته ، ليكون بوقاً للدعاية الملكية ... وعرف المراغي سياسة القصر إزاء تلك الجامعة العتيدة فقدم مذكرته الإصلاحية هذه ومعها استقالته .. وهدد فؤاد .. وصمد المراغي ، ولم يحن رأسه للعواصف الملكية الهدامة الهوجاء ، وإزاء تلك العزة المراغية لم يجد فؤاد عدو الإصلاح بدأ من قبول الاستقالة والموافقة عليها .

وخرج المراغي من منصبه في العاشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٢٩ مرفوع الرأس موفور الكرامة .. وظلت محبته تترى وتستشري وتلتهب في نفوس المخلصين من أبناء الأزهر ثورة عنيفة جامحة تنادي به وتعلن أنها لاترضى بديلا عنه يسوس أمورها ، فأعيد من أجل ذلك إلى منصبه في ابريل سنة ١٩٣٥ وظل فيه إلى أن لقي ربه في أغسطس سنة ١٩٤٥

وطويت بموته أزهى صفحة فى كتاب الاصلاح الدينى خطها الامام المراغى بمداد العزة والتدين الحق ، بعد أن أشرقت عليها عقليته النيرة التقدمية وروحه التواقة إلى مافيه إصلاح الدنيا وصلاح الدين .

الملاح التائه..

هو ملاح وادى النيل .. جاب آفاق أوربا ، وطوف ببلدانها وتغنى بمناظرها ، وشدا بجمالها فى شعر واضح المعنى قوى الأسلوب ، موسيقى اللفظ متسق النغم جيد السبك والرصف . . ودار شعره على كل لسان مع أن ثقافته المعهدية كانت بعيدة كل البعد عن الأدب والشعر .

فقد أعد على محمود طه نفسه ، وهو ملاح وادينا ، ليكون مهندساً ، وتخرج فعلا من مدرسة الفنون التطبيقية مهندسا ، إلا أن ملكة الشعر ظهرت لديه مبكرة حتى طغت على كل مواهبه الأخرى . . ودفعته تلك الملكة إلى أن يطلع على آداب الأقدمين ويحفظ من شعرهم ويعيش فى نثرهم حتى دانت له القوافى وأحنت هاماتها له شموس الأنماط .

وتتضح شخصيته الغنية من بين ثنايا أبياته . . وهى

واضحة بعيدة عن المسخ والاهتزاز . . كان من الشعراء الابداعيين الذين تخرجوا من مدرسة « خليل مطران » الإبداعية التى تقوم على إرسال الخلجات النفسية مترعة بالوجدان من غير تقييدها بأحكام الفكر وقوانين العقل فآمن شاعرنا بأغراضها واتجه اتجاهها الذى كان ثورة على الأغراض العربية القديمة ، بل كان أعظم ثورة فى تاريخ الأدب العربى ويتلخص مذهبها كما قال عميدها خليل مطران « فى أن اللغة غير التصور والرأى ، وأن خطة العرب فى الشعر لايجب حتما أن تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا ، ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا ، لالتصورهم وشعورهم ، وإن كان مفرغاً فى قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية » .

وعلى الرغم من أن ثقافته فى الأدب الغربى لم تكن واسعة إلا أن النقاد يعدونه من الشعراء المجددين ؛ لأنه استطاع بهذا القدر من الثقافة الغربية أن يضفى على شعره روحاً

خاصة ، وأن يجدد فى الشعر الحديث ، وأن يطرق كثيراً من المعانى والموضوعات الإنسانية . وله دواوين شعر كثيرة منها « الملاح التائه » و « الأرواح الشاردة » و « أرواح وأشباح » و « وزهر وخمر » .

ولد بمدينة المنصورة فى أواخر القرن الماضى . . وبعد أن تخرج مهندسا من مدرسة الفنون التطبيقية ، وتنقل فى وظائف الحكومة انتهى به المطاف أخيرا وكيلا لدار الكتب المصرية وظل بذلك المنصب إلى أن توفى فى ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٩

وقد انعكس أثر رحلاته الكثيرة فى أوربا على شعره فأخرج الجديد المستحدث من القصيد وترجم بأحاسيسه عما شاهدته عيناه هناك من ذلك أغنية الجندول فى كرنفال فينسيا التى يقول شاعرنا فيها

أيها الملاح قف بين الجسور فتنة الدنيا وأحلام الدهور

صفق الموج لولدان وحور يغرقون الليل فى ينبوع نور

ما ترى الأغيد وضاء الأسرة ؟

دق بالساق وقد أسلم صدره

لحب لف بالساعد خصره

ليت هذا الليل لا يطلع فجره !

أين من عيني هاتيك المجالى   ياعروس البحر ياحلم الخيال؟

* * *

وقصيدته « المدينة الباسلة » فى ديوانه « زهر وخمر » تقص بطولة الروس فى دفاعهم عن مدينة « ستالينجراد » فى الحرب العالمية الثانية ، حين اقتحم الألمان أسوارها بعد محاصرتهم لها حصاراً عنيفاً ، وظل الصراع الدموى بين المهاجمين والمدافعين عن تلك المدينة يقوى ويضعف زهاء ستة أشهر حتى كتب النصر فى نهايتها لأهالى المدينة الذين كان صمودهم نقطة التحول . بل كان أول مسمار يدق فى نعش الامبراطورية الألمانية .

وقد قدم الشاعر فى هذه القصيدة الوطنية لبنى وطنه وشباب قومه مثلا رائعاً يقتدون به عن أمهم الرءوم مصر إذا ما فكر العداة الغاشمون يوماً فى العدان عليها ، وهو يعتقد أن الشبيبة المصرية لن يكونوا أقل من حماة ستالينجراد بطولة وحباً لوطنهم ، وأنهم سيصارعون المغير

فى كل شبر من أرضها ، وكأنه كان يسبق المستقبل حينما قال بعد أن حيا فتية الفولجا :

يافتية «الفولجا» تحية شاعر	رفّت له فى شدوه الأشعار
ملاح وادى النيل إلا أنه	أغرته بالتيه السحيق بحار
أبداً يطوف حائراً بشراعه	يرمى به أفق ويقذف دار
إنى وقفت لكم مثالا رائعاً	يُومى إليه فى العُلا ويُشار
لشباب مصر وهم بناة حياتها	وحُماتُها إن حاقتْ الاخطارُ
وبمثل ما قدمتمو وبذلتمو	تغلو الديار وترخُصُ الأعمارُ

* * *

وكأنه كان ينظر بظهر الغيب حين وجه هذا المثل لشباب مصر ، فسرعان ما أثبتت الأيام أن المصريين لايقلون فى ميدان البطولة عن غيرهم ؛ إن لم يبزوهم ويأتوا من ضروب البسالة ما يجل عن الوصف ، وكأنه وهو الشاعر الملهم كان يعلم أن المعتدين سيزدردون جرعة مريرة من كأس البسالة المصرية على أيدى حماة بورسعيد إبان حصارها والعدوان الغاشم عليها فى سنة ١٩٥٦

رائد من إقليمنا الشمالي

شخصية سورية لامعة مصقولة ، ترعرعت فى بيت من أكبر بيوتات حلب علماً وجاهاً وشرفا ونسبا ، وتفتحت براعم تلك الشخصية فى بيئة حافظت على تقاليد موروثة سداها العزة والإباء ولحمتها الأنفة والشمم ، تلك هى شخصية السيد عبد الرحمن الكواكبى .

أكمل نفسه وهو فتى يافع بالاستزادة من القراءة والتوسع فى الاطلاع . وفى شبابه أسهم فى ميدان الصحافة وأنشأ جريده « الشهباء » فى حلب ثم رأى الفساد يستشرى وهو موظف فى الجهاز الحكومى ؛ فأعلن الحرب على رؤسائه ، ومن كان سلاحه فى حربه الحق والاستقامة مشى النصر فى ركابه ، ومن أجل ذلك كان النصر حليف الكواكبى ..

خنقت البلاد فى عهده ريح ظالمة غشوم ، هبت منذ أن حكم بلاد العرب « عبد الحميد » طاغية الترك ، الذى ناهض

كل كفاية ، وناجز كل حر ، ووأد كل نبوغ .

والتمس ذوو الحاجة ملاذا يلجأون إليه ، وتطلع المستضعفون إلى ركن ركين يتفيأون ظلاله ، ويعتصمون بمنعته ، ويتحصنون به من هجمات الظلم وشحطات الغشم وموجات البغى والعدوان ووجدوا فى الكواكبى طلبتهم ؛ يجأر بالحق فى عرين الباطل ويحمل فى جرأة وصدق على معاقل الاستبداد والاستعباد ومن أجل هذا غاضب «عارف باشا» والى حلب وناصبه العداء ، ولجأ الوالى إلى أخس الأسلحة فزور على «الكواكبى» أوراقا تتهمه بأنه يسعى إلى تسليم حلب لدولة أجنبيـة ، وطلب محاكمته وحوكم فى بلدة تبعد عن نفوذ الوالى الذى عزل عنـدما ظهرت براءة الكواكبى .

وأودت مـكايد الظلم بثروته المادية بل وأتت عليها ، غير أن ثروته الروحية وطاقته التحررية بقيت مشتعلة الأوار ملتهبة الألسنة . . ولم تجمح به ثورته إلى تهور ، أو تجنح به إلى اندفاع ، بل مالت به عمل دءوب فى رزانة طبع وحدة ذكاء ، فكان كخرير الأمواه يعمل فى بطء حتى يفتت الصخر .

وساح فى الأرض : أرض أفريقية وآسيا ، وهبط بلاد

العرب وجاب الهند وجال أرجاء مصر يبحث ويدرس، ويستقرىء ويستقصى ..

وذون مارأى في كتابين « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » نقد في أولها الحكومات الإسلامية التي أسلمت قيادها للمستعمر فاتخذ الغاصب المستعمر دريئة ليستعبد ويستغل ويستذل . .

ونبه في « أم القرى » الشعوب الإسلامية المستضعفة إلى واجبها والمطالبة بحقوقها والتخلص من أغلالها فهي — وحدها — التي تشق بجهادها طريقها للغلبة والنصر أو تحفر لنفسها بجمودها وخمودها قبر الذلة والهوان .

لذلك قال في مقدمة « طبائع الاستبداد » : إني نشرت في بعض الصحف أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها مادرسته ومنها ما اقتبسته غير قاصد بها ظالما بعينه ولا حكومة مخصصة ، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه فلا يعتبون على الأقدار .. »

ومن آرائه الهادية التى نادى بها «أن كل بلد إسلامى هو وطن له» وأن الشرقيين لن يظهروا على الاستعمار إلا إذا تظاهروا عليه بتكتلهم ووحدتهم وبالتوحد والقومية تظهر عليهم أعراض الصحة السياسية، وتسرى فى أبدانهم روح دافقة دافعة، ولذلك دعا إلى مؤتمر يضم كافة المسلمين ويوحد شملهم وعقد أول اجتماع لذلك المؤتمر الذى ضم ممثلين لكل الأقطار الاسلامية بمكة فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ

وكان الكواكبي النجم اللامع فى سماء هذا المؤتمر الذى أربت جلساته على اثنتى عشرة جلسة شخصت فيها أمراض المسلمين السياسية.

ثم انفض المؤتمر بعد أن اتخذت فيه قرارات وتوصيات ترمى إلى إنهاض المتخلفين من المسلمين وإيقاظ الشوق العاطفى والدينى لديهم، ونشر العلم والوعى الفكرى بينهم، والقضاء على الجهل جرثومة كل داء وأس كل بلاء.

وفى السادس من ربيع الأول سنه ١٣٢٠ هـ هبت

ريح مفاجئة .. عصفت بذلك المصباح المتوهج ، فأطفأت أنواره وهى أقوى ما تكون اشتعالا وإشراقا .

وطويت بموته صفحة من كتاب .. فيها للعروبة وفاء ، وللشبيبة درس وأى درس .

شوقي .. شاعر الإسلام

ومضة من ومضات السماء تغمر القلوب وتعمر الأفئدة فإذا هى خيرة نيرة .. وإشراقة علوية تضيء بسناها السبل للسالكين، فيتوغلون فى المسالك والشعاب على هدى وبصيرة إلى المثل ، والغايات ، والأهداف ، والقيم..

ومزاج من شوق ونشوة وحب وتفان . وأمشاج من دين ودنيا ، وخليط من جد وتهجد ، ورحيق من صفاء وسمو ..

ذلك ملاك شريعة محمد بن عبد الله وتلك هى ملامحها، ومعالم طريقتها الموصلة إلى الحق .. والله هو الحق المبين .

ومن الذين اغترفوا من هذا المنهل الإسلامى وتزودوا من ذلك الزاد الآلهى شاعر إسلامى ، فاضت قصائده بحب الله ، والدعوة إليه ؛ ومؤازرة دينه .

فأبانت فرائده ، وكشفت قصائده وفرائده عن مساتير الروعة الالهية الكامنة فى نفوس الربانيين ، بعد أن نفذ فى دقة وعمق إلى هاتيك النفوس التى تحررت من إسار المادة ، وتحللت من ربقة العبودية إلا لبارئها ، وترجم ببيانه وقصيده عما بها ونشر على الملأ ما حجب من أفضالها وفضائلها وسيرها وأسرارها . .

وصنيع شاعرنا شوقى فى هذا كصنيع الغواص الماهر الذى يصل إلى الاعماق والأغوار فيستخرج الدرر الكريمة واللآلىء الغوالى ثم ينزع عنها غلالاتها وأصدافها فإذا هى جواهر مجلوة تشع سناً وتشيع ضياء ونورا .

لاغرو إذن أن نضح شعره بترانيم الهية وألحان قدسية تصقل النفوس وتصل بين الخلق والخالق بوشائج من نور وأسباب من فيض ربانى تسكن الافئدة الخربة الموات فتجعلها حية نابضة ، عامرة بالإيمان هاتفة لله داعية إلى سبيله ...

ولشوقى — فوق عبقريته الشعرية التى جالت فى كل ميدان فأتت بالرائع الفائق والرائق الأخاذ — له فوق

ذلك نفحات صوفية هادفة انتزعها من تجاربه فى دنيا الإيمان واستخلصها من أئمة الإسلام وعلمائه وأعلامه . . واستخلصها قبل ذلك كله من السيرة العطرة . . سيرة أمير الأنبياء ورسول الإنسانية والسلام محمد بن عبد الله عليه السلام . .

ولشوقى فى ذكرى المولد النبوى الشريف — والذكرى وقفة بين الماضى والحاضر نستلهم فيها العظة والعبرة ونستخلص منها كل جميل جليل — لشوقى وقفة طويلة فى هذه الذكرى ساح فيها بفكره وسبح بعاطفته فى جو روحى مشرق ، فنم شعره عما جال فى روعه آنئذ من رقائق ودقائق ولطائف وخاطرات وحكم وعظات .

وحسبنا أن نعرض له قصيدته فى هذه الذكرى الشريفة التى مطلعها :

سلو قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

فهى تفيض بمعانى وجدانية وعاطفة دينية مشبوبة . فيها يقرر — كما قرر الإسلام — أن الحياة خداع . .

ونعيمها سراب .. ونجمها إلى أفول . والراحة إنما تكون في طاعة الله .

وكل بساط عيش سوف يطوى   وإن طال الزمان به وطابا
ولا ينبيك عن خلق الليالى   كمن فقد الأحبة والصحابا
أخا الدنيا أرى دنياك أفعى   تبدل كل آونة إهابا
فمن يغتر بالدنيا فإنى   لبست بها فأبليت الثيابا
جنيت بروضها ورداً وشوكا   وذقت بكأسها شهداً وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما   ولم أر دون باب الله بابا

والمؤمن ينظر إلى الدنيا على أنها وسيلة للآخرة ؛ إذ الإيمان جمع بين الدين والدنيا مصداقا لقول الله « ولاتنس نصيبك من الدنيا » ولما جاء فى الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » هذه النظرة يقدمها لنا شاعر الإسلام شوقى فى بيته .

وخذ لبنيك والأيام ذخرا   واعط الله حصته احتسابا

والإسلام حض على البر وتحريض على الخير :

وأن البر خير فى حياة   وأبقى بعد صاحبه ثوابا
وأن الشر يصدع فاعليه   ولم أر خيراً بالشر آبا

وشوقى يتسامى عندما يقول فى قصيدة له بعد عودته من المنفى :

ولم أر مثل سوق الخير كسباً ولا كتجارة السوء اكتسابا
ولولا البر لم يبعث رسول ولم يحمل إلى قوم كتابا

وحب الله هو المقصد الأسمى من العبادة :

عجبت لمعشر صلوا وصاموا ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المـال صما إذا داعى الزكاة بهم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منهم كأن الله لم يحص النصابا
ومن يعدل بحب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخابا

وفى هذه القصيدة النبوية يرسم بريشته البـارعة لوحة ظلالها حق وخطوطها صـدق تعبر عن الديمقراطية الحقة وسواسية الناس :

ألم تر للهواء جرى فأفضى إلى الأكواخ واخترق القبابا؟
وأن الشمس فى الآفاق تغشى حمى كسرى كما تغشى اليبابا ؟
وأن المـاء تروى الأسد منه ويشفى من تلعلعها الكلابا
وسوى الله بينكمو المنايا ووسدكم مع الرسل الترابا

فيلسوف مصري

للإمام الشيخ محمد عبده حواريون وتلامذة أفاض عليهم من علمه وأفاء عليهم من إشراقه ، وصقلهم بروحانيته ، وصنعهم على عينه ؛ فتخرجوا من مدرسته حملة رسالة وقادة فكر وموجهي رأى وباعثي نهضة .

من هؤلاء النفر واحد واصل البحث والدرس بعد وفاة إمامه ثلاثين عاما ، انقطع خلالها للتهجد الفكرى فى محراب العلم ؛ فألف وصنف . . وترجم ولخص . . وأخرج وحده من غير أن يعاونه أحد دائرة معارف القرن العشرين ، ذلكم هو الفيلسوف المصرى « محمد فريد وجدى » تلميذ من تلاميذ الإمام محمد عبده ، وواحد من مريديه وشيعته ، أشرب قلبه حب العلم والدين فوهب حياته لهما ، وتسلح بالمعرفة الحقة ليدافع بها عن عقيدته ويدفع ما علق بها من ترهات ، ويذيب ما ألصقه الشانئون والقالون

بالشريعة المحمدية من أباطيل وأكاذيب .

وصنف سنة ١٨٩٩ — وكان إذ ذاك في الرابعة والعشرين من عمره — كتابا أسماه « المدنية والإسلام » كتبه بالفرنسية لينشر في أوربا ، فكان شعاعاً باهراً كشف للغرب عن سماحة الإسلام ، وأبان لهم أن الديانة الإسلامية توافق المدنية الفاضلة وتوافق أسمى العواطف . وقد أراد من هذا الكتاب ، كما قال في مقدمته بعد أن نقله إلى العربية ، أراد منه : « تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الإسلامي وماهيته ؛ إذ هم جاهلون بكنه هذه الشريعة ، ولا يعلمون عنها إلا أضاليل يهذي بها بعض كتابهم ضدها . والأوربيون لهم العذر في تصديق هذه التهم التي يلصقها بالإسلام أعداء الإسلام ، ولهم الحق في العمل ضدها ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التي اخترعها صغار العقول وقبلها منهم العامة ، وزادوا عليها أشكالا من الأوهام والأضاليل تنفر منها الطباع البشرية ، وتنافى أصول المدنية . كيف نرجو أن يفهم الأوربيون حقيقة ديننا وأنه الملاك الوحيد للسعادات كلها ، وهم لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما يرونه أمام أعينهم كل يوم من صياح في الطرقات

خلف الطبول وتحت الرايات واقتراف أشد المنكرات المنافية للآداب فى الموالد التى تقام فى البلاد ؟ أليسوا معذورين فى هذا الفهم السيء ما دام يحضر هذه المنكرات ويتفرج عليها عقلاء هذه الأمة بدون أن يجدوا فى أنفسهم ميلا إلى رأب هذا الصدع المتفاقم الذى لم يقتصر على جر العوام منا إلى المنكرات والآثام فحسب بل وإلى الانحلال والإخلال بعقيدة التوحيد النقية » .

وقد أثنى السيد رشيد رضا على هذا الكتاب الثناء المستطاب وقال عنه : « لم يسبقه كتاب فى تبيان التعاليم الدينية إلا رسالة التوحيد للإمام محمد عبده » .

وبدأ محمد فريد وجدى سنة ١٩٢١ فى إصدار صحيفة نصف شهرية سماها « الوجديات » اشتملت على مقالات أدبية فى شكل حوار على ألسنة الطيور ، وتضمنت دراسات دينية وأبحاثاً فلسفية ، وألواناً ثقافية بأسلوب سهل ، ثم ما لبثت أن احتجبت بعد آخر عدد صدر منها فى إبريل سنة ١٩٢٢ ، وقد جمع كل مقالاته فيها فى كتاب واحد أسماه باسم تلك الصحيفة .

وقد توالت بعد ذلك بعض تواليفه التى عالج فيها بعض الموضوعات الأدبية والمشاكل الاجتماعية التى أثارها المفكرون المصريون فى أيامه ؛ فأخرج كتاب « المرأة المسلمة » رداً على قاسم أمين فى كتابه « المرأة الجديدة » وأورد فيه دراسات فلسفية مدعمة بالإحصاءات والأسانيد عن حالة النساء فى العالم . وأخرج كتاباً آخر أسماه « نقد كتاب الشعر الجاهلى » عارض به كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين الذى أحدث نشره دوياً أدبياً فى الأوساط الثقافية إبان ذلك ؛ لما اشتمل عليه من نظريات خاصة وآراء جريئة جديدة .

كل هذا بجانب مؤلفاته العديدة الأخرى « الإسلام فى عصر العلم » و « الإسلام دين عام خالد » وهو تحليل دقيق لأصول الدين تحت ضوء العلم والفلسفة و « كنز العلوم واللغة » و « على أطلال المذهب المادى » الذى كشف فى مجلداته الأربعة عن حقيقة العلم وأصل الفلسفة والتنويم المغناطيسى والروحيات وآراء العلماء الأعلام فى كل ذلك . وقد ترجم فريد وجدى كتابه « دستور التغذى »

عن كبار علماء الصحة ، وتحدث فيه عن ضروب التغذية ومقاديرها من حيث الغذاء ، وعلاقتها بالبنية الإنسانية ، والأمراض وأسبابها وكيفية الوقاية منها .

وقد أسهم في الحقل التعليمي ، فأخرج كتابين هما « شرح المنهاج الدراسي للمدارس المصرية » و « كتاب المعلمين » .

ثم اتجه ذلك الفيلسوف المصري في كتبه الأخرى إلى نوع آخر من البحث : فقد عني بالبحوث الروحية والغيبية ، والاستدلال على خلود الروح ، وعرض أحدث الأبحاث الروحانية ، والتجارب الغيبية التي ظهرت في المحافل العلمية الأوربية ؛ فترجم ما كتبه « كاميل فلاماريون » بعنوان « الموت وأسراره » في دائرة معارفه بالجزء الثالث ص ١٨٨ كثير من الآراء الروحية ، ولا سيما عن الجن إذ يقول « إن كثيراً من الشيوخ الذين لا يشك في صدق رواياتهم ذكروا أنهم رأوا الجن وخاطبوهم ، وهذا لا يتنافى مع العقل ، ولا يتعارض مع سنن الخلق ؛ فإن الله قادر على أن يخلق بعض الأرواح المتلبسة بالمادة ، وأرواحاً أخرى غيرها بريئة من المادة ، وهل يستطيع أحد أن يعترض

على مثل هذا الاعتقاد بعد أن وضحت الحقيقة فى أوربا بأن ظهرت الأرواح المجردة عن المادة، وخاطبت الناس فى جلسات استحضار الأرواح .

وعلى رأس كل هاتيك التواليف « المصحف المفسر » وقد أبان فى مقدمته الدافع الذى حدا به إلى إظهاره فقال « حاولت أن أقرأ القرآن قراءة تدبر وفهم كما أمر به موحيه سبحانه وتعالى فأعوزنى أن أجد من التفاسير ما يبلغنى أمنيتى من أقرب الطرق وأسهلها ؛ فالمطولات لا يتسع لتلاوتها وقت أمثالى من المشتغلين بفروع كثيرة من العلم ، والمختصرات قصد بها حلول المسائل الفنية من التفسير . وكان مرادى تفسيراً يعطى الألفاظ العربية حقها من البيان ، ويعرض للمعنى بعبارة خالية من المسائل الفنية مع بيان أسباب النزول ؛ ليتجلى للقارىء المعنى بكل جلاله . . فشرعت أكتب هذا التفسير الذى أقدمه اليوم راجياً أن أكون بهذا العمل سببا فى نشر معنى كتاب الله بين ناس لم يكونوا ليبلغوه فى حياتهم ، إما لأن أعمالهم لا تمكنهم من الاطلاع على التفاسير ، وإما لأن مادتهم العلمية لا تسمح لهم بإدراك أغراض المؤلفين السابقين » .

المؤرخ المصري

أسهم بكتابته المشتعلة حماسة ووطنية فى إذكاء روح التحرر ، وأغرى العرب بأن يستلهموا من ماضيهم المجيد وتاريخهم الزاهر وقوداً يذكى همتهم ، ويلهب قواهم ، ويدفعهم للنهوض من كبوات الفساد الداخلى الذى صدع وحدتهم وفرقهم أيدى سبأ . كان ثورة لاهبه ، وفورة لا تخش بطشاً ولا وعيداً ... كتل قوى المصريين بروائعه الأدبية . . وشحذ هممهم بمقالاته الصحفية . . ووجه أنظار بنى الوطن ليحملوا أرواحهم على أكفهم ، ويفنوا فى حب الوطن ، ويخشوشنوا على أعدائهم وشانئيهم ؛ ليتسنموا ذروة المجد وينشطوا من عقال الاستعباد وأغلال الاستغلال .

إنه صاحب البلاغ الأستاذ عبد القادر حمزة الذى فقدته مصر ، وخلا مكانه فى الصحافة ومكانته فى الأدب فى يوم الجمعة ٦ من يونيه سنة ١٩٤١ ، وهو فى الثالثة والستين من عمره

« إن هذه المواهب التى كونته والسجايا التى اتصف بها قلما تجتمع لأحد ؛ فلقد بلغ ما بلغ من رفيع المنزلة وبعد الصيت بحسن استعداده ، وطول اجتهاده فلم يتكىء فى جهاده المادى أو الأدبى على سندمن أسرة أو ثروة أو وظيفة ، وهو فى ذلك أحد الأفذاذ الذين شقوا طريقهم الوعر بسن القلم ... وكان قلمه فى يده كالمبضع فى يد الجراح الماهر ، لا يشق إلا بتقدير ولا يقطع إلا بقدر ، ولم يتميز من الأساليب الصحفية فى عصره غير أسلوبه وأسلوب أستاذ الجليل الفيلسوف المصرى لطفى السيد . . تميز أسلوبهما بالايجاز والاشراق والطلاوة وروعة المنطق ، وبرىء من الثرثرة واللغو والبعد عن الاسفاف والابتذال » .

عالج عبد القادر حمزة المحاماة فى مقتبل عمره ، ثم دفعته الظروف بمعونة ميله الفطرى إلى الصحافة فبرز فيها تبريزاً لا يتهيأ إلا لأصحاب الملكات القوية ، وكان مما ساعده على هذا التبريز طريقته الواضحة فى الجدل ، ومذهبه العفيف فى النقد ، ونظرته الثاقبة فى الأدب ، ورجولته العنيدة فى الحق ، العنيفة فى هد الباطل وهدم حصونه .

« مال إلى الكتابة الصحفية فى مطلع شبابه ، وكتب سنة ١٩١٩ فى جريدة « الأهالى » وكانت ميتة مقبورة فأحياها عبد القادر بأسلوبه الرصين ، وغذاها بوطنيته ونفخ فيها من روحه فأقبل عليها كل من حرص على غذاء العقل والوجدان .

وظل يكتب ويجاهد فى سبيل مصر التى كانت ترزح تحت نير الاستعباد الأجنبى ، وحمل حملات صحفية صادقة على الاستعمار وأذنابه ، وكان من نتيجة حملاته على الأحزاب ورجال الحكم الطالحين فى دنيا السياسة المصرية أن لقى منهم ومن عنتهم وجبروتهم ما يوهن أقوى العزائم ، ولكنه كان بين تلك الزعازع كالأشم الراسخ لاتنال منه الرياح الهوج ، ولا تهزمه الأعاصير ولا يزيده العنت إلا عناداً وإصراراً .

وكان دائماً ما يهتف « نحن قريبون من النصر » وقد رثاه الدكتور زكى مبارك — الذى كان يحرر فى جريدة البلاغ التى أسسها عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣ — وعدد مناقبه وسجاياه فقال « كان أخاً نقى القلب ، عذب الروح . . كان مثالا نادراً فى حفظ الوداد بالمحضر والمغيب . . كان دنيا باسمة من الأخوة الروحية . . كان كنزاً نزعته الأقدار من أيدى مصر . . عاش فى

متاعب جسام ثقال . . كان يعادى بعنف ويصادق بعنف . ومن أجل هذا كانت حياته سلسلة من الآلام والآمال والعواطف العنيفة تزلزل بنيان الجسد فتسوق إليه الموت قبل أوان الموت . . . كان يقضى أوقاته فى استقصاء حوادث التاريخ ولو قال قائل بأن عبد القادر حمزة هو أصدق مؤرخ فى مصر لما اتهمه أحد بالمبالغة والإغراق ، و المتصفح لكتابه « تاريخ مصر القديم » وما يحمل بين دفتيه من صادق الحس وجمال التعبير وحسن العرض لأمجاد مصر، لا يسعه إلا أن يحكم على زكى مبارك بأن عبد القادر حمزة هو أصدق مؤرخ فى مصر الحديثة »

وقد اعتقل عبد القادر مع الدفعة الثالثة فى ثكنات قصر النيل ، ومكث فى المعتقل قرابة شهرين وله — فضلا عن مترجماته الجمة ومؤلفاته العديدة فى القصص والأدب — له جزء ثان لم يستكمل من كتابه « على هامش التاريخ المصرى القديم » أصدره أبناؤه بعد وفاته على الحالة التى تركه عليها وعند آخر كلمة خطتها يده فيه .

وقد ترجم عبد القادر حمزة للكاتب الإنجليزى « الفريد اسكاوند » مؤلفه الهام « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر » ،

وكتب له مقدمة سرد فيها مساوىء الخديو اسماعيل ومثالب حكمه ، وأصدر الكتاب مع المقدمة فى عهد الملك فؤاد فكان جزاؤه أن أغلقت كل جريدة أصدرها أو حرر فيها .

وعارض عبد القادر سعد زغلول فى كثير من المواقف التى حاد فيها سعد عن الجادة ، وخرج عليه فى مقالات بجريدة الأهالى سنة ١٩٢٠ عنوانها بالمثل العربى المشهور « ما هكذا يا سعد تورد الأبل » .

وإن مصر لتذكر لمؤرخها الصادق وولدها المخلص معارضته المشهورة لمشروع « ملنر » التى كان من نتائجها أن رفض ساسة مصر هذا المشروع بعد أن فكروا .. وفكروا كثيراً فى قبوله .

الرحمة المهداة

هو رائد الانسانية والسلام والاسلام محمد بن عبد الله عليه السلام الذى قال « إنما أنا رحمة مهداة » .

والحديث عنه فى هذه العجالة من أحاديثه عليه السلام :

نسبه : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان »

وقال .

« إن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من بنى اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من بنى قريش بن هاشم واصطفانى من بنى هاشم .

شرف منبته : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فرقا فجعلنى فى خيرهم فرقة ، وجعلهم قبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتا فجعلنى في خير بيت ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نسباً »

طهارته : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة ، ونحن فى رعاء غنم أهلها فقلت لصاحبي : ابصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان . . فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالمزامير فقلت : ماهذا ؟ قالوا : حفل زواج . . فجلست انظر وضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال : مافعلت ؟ قلت : مافعلت شيئا . . ثم أخبرته بالذى رأيت . ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ففعل . فدخلت . . فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة وجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ووالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته »

مبعثه : جاءنى الملك فقال : أقرأ . . قلت : ما أنا بقارىء ! ! فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم »

سنته ومنهاجه : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزى ، والحزن رفيق ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخري ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلق وقرة عينى فى الصلاة »

أسماؤه : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، والمقتفى ، ونبى الرحمة ، ونبي التوبة ، ونبي الملحمة ، والماحى [الذى يمحو الله به الكفر] ، والعاقب [آخر الأنبياء] .

خصائصه : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب يُقذف فى قلوب أعدائى وجعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُحلتْ لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيتْ الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الخلق كافة . .

الشاعر الذى يتحدث عن نفسه

ليس أقدر على تبيان أحاسيس الشاعر من نفس الشاعر ، لذلك سندع شاعرا مصريا معاصرا يسطر بقلمه تاريخ حياته ، ويروى بقوله الخطوط العريضة لكفاحه خلال خمسين عاما قضاها فى ميدان الأدب والقريض ، ثائرا على المذاهب الأدبية القديمة ، ناعيا عليها جمودها وقيودها ، حاملا لواء التجديد فى شعرنا المعاصر ، داعيا إلى الحرية الفنية والفكرية .

يقول شاعرنا المصرى الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى حديث له عن نفسه : « أدين فى الروح الأدبية العامة إلى المدرسة الأدبية التى كان من أعلامها : عبد القادر المغربى ، وتوفيق رفعت ، ولطفى جمعة ، وتأثرت فى الأدب الغربى بشيلى وهينى وكيتس من الشعراء ، وبديكنز وأرنولد من الأدباء . وإلى « ولز » و « مطران » أهديت

روايتي الشعرية « اخناتون » نظرا لنزعتهما الانسانية التي أتعشقها ، فما همت بشيء قدر هيامي بالثقافة الانسانية الصحيحة . وأما اطلاعي الأدبي والفلسفي العام — فضلا عن اطلاعي العلمي — فوفير ومتنوع ، والنهضة الأدبية في العالم العربي أساسها التيقظ ثم التأثر بالأدب العربي ، وهي نهضة صحيحة قوامها الشباب المثقف . ولا بد من استمرار التفاعل والتطاحن بين القدامى والمجددين إلى أن يصطبغ الأدب في كل قطر بصفة قومية . وإني اعتبر الشعر الحديث قد بلغ غاية من التفنن والابداع لم تكن تخطر على البال في عصر من العصور السابقة . وقد أبديت رأيي في ذلك بتوسع في مجلتي « أبولو » وأما عن نهضة الغناء فما زلت أرى أن الغناء التعبيري والتلحين التعبيري بعيدان عن التحقق بفضل قصور الملحنين . وأنا ضد الأغاني المبتذلة ، وأدعو بحرارة إلى تطويع اللغة العربية السهلة للأغاني ولي نحو تحقيق هذه الغاية كتاب « أغاني أبي شادي » كما أرى أن تبث الموسيقى الأوربية في الأغاني العربية واقترح لذلك أن تترجم الأوبرات المشهورة وتطبق الترجمة النثرية أو النظمية بدون أي تصرف على الألحان

الأصلية . وغرضي من ذلك الاستمتاع أولا بتلك الروائع الفنية وثانيا تهيئة مواهب الفنانين المصريين للتأثر بتلك الروائع تمهيدا لانجابهم الفني المستقل ، المجارى للفن الأوربي السامي ، وقد قامت لجنة النشر والتأليف الموسيقية بتلحين بعض أوبراتي ووقف عجز المسرح المصري دون القيام بتمثيلها .

أما تجديدى فى الشعر فيتبلور فى الدعاية إلى الشعر الحر وقد وضعت أولى النماذج منه فى اللغة العربية وكان لذلك أثر مشهود فى التحرر بتأليف الروايات الشعرية وفى مجلة « أبولو » نصوص عديدة لذلك الشعر الحر . وقد نظمه أول « أوبرا » فى اللغة العربية كما دعوت إلى التعبير الفطرى الطليق كضمين للابتكار ولحرية الخيال الفنى ، بدل تسخير الشعر لاعتبارات ثانوية من لغة وغيرها مما قضى على الروح الفنية فى الماضي قضاء بليغا . ودواويني ومجهودات مريدى فى مجلة « أبولو » وفى غيرها تمثل نتائج هذه الدعوة وآثار هذا المذهب الفطرى الذى يعادى التهيب والتصنع وتسخير الروح الفنية لما عداها .

وقد قلت فى الشعر القصصي والرمزى وجلت فى شتى

الأغراض الشعرية الفنية ، ولقد قرأت للكثيرين من شعراء الفرنجة وأنا أطلع باستمرار على الجديد من الشعر ونقده وقد اختططت لنفسى مذهب البحث عن الجمال الفنى فى كل ضرب من ضروب الشعر وأميل إلى الاندماج فى شخصية الشاعر والاطلاع على ترجمته قبل الاقبال على دراسته ، ولذلك لم يكن بالمستغرب أن أتذوق الشعر من شخصيات متناقضة ، لأنى أتطلع إلى الجوهر الفنى وحده فى كل هـذه النماذج المتباينة ، وأنا بطبيعتى أميل إلى الشعر العاطفى الحار فى أوقات لهفتى وعطشى الروحى ، وفيما عدا ذلك استوحى إيمانى النفسى من الشعر الفلسفى وشعر الطبيعة والوصف ، فلا غرابة إذا استمتع مثلا ببيرون وهينى وكيتس فى أوقات ، وبشكسبير وملتون فى غيرها ، واستمتاعى بالبحترى والبهاء زهير آونة ثم بالمعرى والمتنبى فى أوقات أخرى .

وفى شعرى تتجلى النماذج المعبرة عن روحى المتعددة الجوانب ، فتجد شعر العاطفة الحارة وشعر الطبيعه التصوفى والشعر القوى والفلسفى والإنسانى العام ودواوينى ومؤلفاتى

الشعرية خير شاهد على ذلك . أوجمل مافى الشعر تحرزه وأصالته وموسيقيته وعمق الإحساس فيه » .

تلك صورة زاهية مشرقة لعقلية نيرة وفكر متحرر ونفس طلقة وثابة ضاق صاحبها بفساد الحكم والأحزاب فى مصر ، فتاق إلى الهجرة ، وما أن أقبلت سنة ١٩٤٦ حتى فر شاعرنا أبو شادى مهاجرا إلى أمريكا بعد أن نعى على الملكية ووصفها بأنها شر وبلية :

ذهب الملوك بعصرهم وتمخضت
نوب الحوادث عن أذى الملكية
حسبي حوادث نصف قرن كامل
لتزيدنى كرها لهـــا كبلية

وفى نفس السنة التى هاجر فيها توفيت زوجه الحبيب فرثاها بقوله :

ماذا تفيدك لوعتى وبكائى
هـــذا فناؤك مؤذن بفنائى

ويصور أبو شادى ملامح شخصيته المرحة التى تنبع منها

طاقات من التفاؤل تبدد ونخزات التشاؤم وتبيد هجات الألم فيقول :

ترى ألم الأحرار سر وجودهم
ومن ذلك الحرّ الذى ما تألما ؟
طغى كل يوم مأتم بعد مأتم
ونفسى تأبى أن ترى الكون مأتما
وما زلتُ تغزونى المآسى كأننا
صحاب ، وتهوانى شرابا ومطعما
بلا كلفة تحيا على بر مُهجتى
فآثرت أن أفنى وأن أتبسما

وعندما أعلن الحكم الجمهورى المصرى فى ١٨ من يونية سنة ١٩٥٣ حياه بقوله :

إذا الحكم للجمهور أصبح رائدا
أبى الحق أن يلقى به العار والظلما

وفى نفس هذه القصيدة حيا رجال الثورة الأبرار وتغنى بقوتهم وهتف للحرية الجديدة التى استقبلتها مصر على أيديهم فقال مخاطبا مصر واصفا ثوارها :

قد انتزعوا من قبل حظك عنوة

وما برحوا والدهر كالطائش الأعمى

تجبّر واستعلى فروده صاغراً

وقد كان كالمحموم سكران بالحمى

وها أنت بالعهد الجديد طليعة

ومنجبة أعـــلام نهضتك الشما

هـذا هو حديث شاعرنا أبى شادى الذى هاجر إلى أمريكا فرحبت به هيئاتها الأدبية ومؤسساتها الثقافية، ودعته جامعاتها ليحضر فيها عن الأدب المصرى الحديث بعد أن انتخب أستاذا للأدب العربى بمعهد « آسيا » بنيويورك . وظل هناك عربيا خفاقا إلى انتكس حينما وافاه أجله فى ابريل سنه ١٩٥٥ .

إلى التلميذ الذي اطمأن إليه محمد عبده

لايذكر اسم الإمام محمد عبده إلا ويذكر معه اسم « محمد رشيد رضا » ، فهو أكبر تلاميذ الإمام محمد عبده فى حياته ، ومؤرخ سيرته بعد وفاته ، وهو الذى نشر كتبه ، وفسر تعاليمه ، وكان من أشد النـــاس إيماناً بها وسيراً على سنتها ، وقد أخرج صحيفة المنار ليجعلها أداة لنشر هذه التعاليم وتلك الآراء التى داوم على الدعوة إليها خلال ربع قرن بعد وفاة الأستاذ الإمام .

والسيد رشيد سورى ، شريف النسب ، تلقى العلم فى مدارس طرابلس بسوريا وأعطاه شيوخه بعد أن أتم دراسته شهادة العالمية سنة ١٨٩٧ ، وتتلمذ ، وهو صغير ، على يد الشيخ حسين الجسر أشهر عالم سورى فى زمانه .

وهنــاك شيئان كان لهما أبلغ الأثر فى حياته والاتجاه بها وجهة علمية دينية هما : صحيفة ... وكتاب ، تحدث

عنهما السيد رشيد فقال « ظفرت فى أوراق أبى بنسخة من مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها فى باريس الإمامان « الأفغانى ومحمد عبده » فعكفت على قراءتها فى شوق ولهفة ، ثم جمعت أعدادها جميعاً بعد لأى فى مجلد ، وقد أثرت مقالاتها فى نفسى تأثيراً بالغاً وكانت السبب فى توجيه حياتى وجهة جديدة ، ثم يقولى : أما معلمى الأول فهو كتاب الأحياء للغزالى وهو أول كتاب استحوذ على لبي وقلبي . أما معلمى الثانى فكان صحيفة العروة الوثقى التى غيرت مجرى حياتى » .

وكان من أثر قراءته لهذه المقالات أن أحس بالرغبة فى الاتصال بجمال الدين الأفغانى ، وكان فى الاستانة وقت ذاك ، إلا أن رغبته لم تتحقق لوفاة الأفغانى بالاستانة فى الوقت الذى هم فيه رشيد بالتوجه إليه . وأراد رشيد رضا بعد وفاة جمال الدين الذهاب إلى مصر ليتصل بالإمام محمد عبده ، ولما سنحت له الفرصة بعد اتمام دراسته فى طرابلس غادر سوريا إلى مصر سنة ١٨٩٧ وفى غداة وصوله إلى القاهرة بحث عن الشيخ محمد عبده وتتلمذ له ، وهكذا ابتدأت بينهما الصلات ولم تقطعها إلا وفاة الإمام

سنة ١٩٠٥ . وكان الشيخ محمد عبده يحب تلميذه رشيد ويطمئن إليه ، وكان التلميذ يتيه بأستاذه ويجله إجلالا لاحد له ويشيد بذكره ويصفه بأنه حجة الإسلام فى العصر الحديث . وقد أخذ السيد رشيد بحظ عظيم من العلوم الإسلامية ، وفى نشرة لمصنفات أستاذه وفيما كتبه عليها من الحواشى والتعليقات مايدل على تمكنه العلمى ، وأعظم ماتبدو كفايته العلمية فى علوم الحديث ، ذلك لأن الحركة التى أنشأها الإمام محمد عبده علقت أهمية كبرى على السنة الصحيحة وحدها لتكون مصدراً أساسياً من مصادر الإسلام فى صورته الحديثة .

يقول « جولد زيهر » : إن مقدرة رشيد فى نقد الأحاديث المختلفة وما أظهره من الكفاية العظيمة فى ذلك تذكرنا أحياناً بالنقدة من علماء الحديث المتقدمين » . ولم يكد رشيد رضا يصل إلى القاهرة ويتصل بأستاذه حتى ألقى بنفسه فى غمرات الصحافة وخاض عجاجها وأخرج «المنار» صحيفة أسبوعية سنة ١٨٩٨ وكانت فى بادىء أمرها مجلة شهرية لاتجد تشجيعاً ولا رواجا . وخاصة لأن الحكومة

العثمانية أعدمت كل ما كان يصل من أعداد إلى سوريا وتركيا .

وسارت المنار فى الطريق الذى سارت فيه مجلة العروة الوثقى فقد كانت غايتهما الكبرى نشر الإصلاح الدينى والاجتماعى والاقتصادى وإقامة الحجة على أن الشريعة الإسلامية أداة صالحة للحكم ، ومحاربة الخرافات والاعتقادات الدخيلة على الإسلام ومناجزة التعاليم الضالة والتفاسير الباطلة لآى القرآن وأحكامه ، ومناهضة مادخل على العقيدة من مستحدثات وضلالات وبدع ، كالاعتقاد فى الأولياء والتمسح بقبورهم ورفع الظلامات إليهم ، والحض على التسامح والتساند والتآلف ودفع الأمم الإسلامية إلى متابعة الأمم الأخرى والسير معها فى ركب الحضارة والتقدم العلمى . .

وتفسير المنار هو الإسم الذى أطلق على تفسير القرآن الذى بدأه الشيخ محمد عبده ثم واصله بعد وفاته رشيد رضا ، ولعله من المناسب أن يقرن اسم هذا التفسير بالمنار ، لأنه نشر أولا على صفحاته قبل أن يطبع فى شكل كتاب مستقل ،

ولأن صاحب المنار كان له — إلى حد كبير — الفضل فى إخراجه ، وفى الحق أن الشروع فى كتابة هذا التفسير يرجع إلى همة رشيد رضا قبل كل شيء ، فهو الذى دفع الإمام إلى وضع تفسير للقرآن كله ، ينفخ فيه من روحه وعلمه وشخصيته التى تجلت فى مقالات العروة الوثقى . وكان الأستاذ الإمام يرى فى ذلك الوقت أن الحاجة لاتدعو إلى وضع تفسير جديد وأنها إذا دعت إلى ذلك ، فإن هذا التفسير الجديد لن يحقق الأغراض التى تقصد من وراء وضعه ، ثم رضى بعد هذا بأن يقرأ درساً فى التفسير بالجامع الأزهر وحضره عليه رشيد الذى كان يكتب فى أثناء إلقاء الدروس مذكرات يضمنها أهم ماقاله أستاذه . وقد نقحها فيما بعد ووسع فيها وعرضها على الشيخ فأقرها وصحح مارأى تصحيحه منها وشرع ينشر هذا التفسير فى المنار سنة ١٩٠٠ بعنوان « تفسير محمد عبده » وقد نشر رشيد هذا التفسير منسوباً إلى أستاذه لأنه رأى وجوب ذلك مادام أن أستاذه قد اطلع على ماكتبه قبل نشره ووافق عليه .

وبعد وفاة الشيخ الإمام رأى رشيد أن يواصل التفسير على منهج أقرب مايكون إلى منهج أستاذه ، ولا نغالى إذا قلنا

إن الكثير مما كتب من التفسير فى حياة الإمام كان من
وضع رشيد رضا نفسه وإن كان قد عزاه إلى أستاذه ،
فلمـــا قبض الله الإمام إلى جواره ميز رشيد رضا بين
ما حفظه من كلمات الإمام وبين ما كان من عندياته هو .
وهو يقول « إنى أعتقد مع هذا أن الإمام لو بقى حيا
واطلع عليه لأقره كله » وفى سنة ١٩٣٠ انتقل هذا التلميذ
المخلص إلى ربه بعد أن أدى رسالة أستاذه نحو بلاده
ووطنه الإسلامى .

الشاعر الذي حاربته تركيا

نفس كبيرة شديدة الحساسية ، زاخرة بالمشاعر ، جياشة العاطفة ، وجسم نحيل نحيف ، ومنزلة مرموقة فى عالم الأدب والقريض . تلك هى الصفات المميزة لشخصية شاعر القطرين ، خليل مطران ، الذى استقبلته الحياة وليداً صغيراً فى بعلبك سنة ١٨٧٢ ، وأودعته بين يدى أبوين عاشا عيشة محافظة فى بيئة امتزجت فيها التقاليد التركية بطرف من الحياة العربية البدوية . وفى « زحلة » كان مراحه ومغداه وملاعب صباه ، وفى كتابها تلقى مبادىء القراءة والكتابة ، وكثيراً ما قسا عليه « العريف » ووصفه بالجهل ، ووسمه بضيق الفطن . وما درى أنها الطفولة المرحة المنطلقة التى لما تتحمل بعد أعباء الحياة وأثقالها .

ويذكر شاعرنا تلك الفترة اللاهية العابثة من حياته فيقول :

إنى لأذكر « زحلة » وأنا   ولد لعوب بين أولاد

متعلم فيها الهجاء ولى نزق فلا أصغى لإرشاد
كل يعد الدرس مجتهداً وأنا بلا درس واعداد
أمسى وأصبح والعريف يرى أن الجهالة ملء أبرادى

وانتقل وهو فى السابعة من عمره إلى بيروت ، وفيها أتقن اللغة العربية وتتلمذ على يد الشيخ ابراهيم اليازجى ، شيخ الأدباء والعلماء فى عصره — واستفاد من أستاذه المحافظة على التدقيق اللغوى وسلامة الأسلوب . وفى بيروت تفتحت مواهبه فانطلقت شحنات متدفقة من شعر ثائر فائر . وطاقات من عاطفة صادقة ، لا مخاتلة فيها ولا نفاق .

من أجل ذلك كانت بواكير شعره ثورية محضة هاجم فيها السلطان التركى عبد الحميد ونعى عليه غشمه وظلمه ، وكتمه للحريات وكبته لصيحات الإصلاح . ولما رأت حاشية السلطان أثر ذلك وخطره ، ضيقوا الخناق على الشاعر واضطروه إلى الهجرة من بيروت ، فيمم وجهه شطر باريس سنة ٨٩٠ وقضى فيها سنتين حاربته تركيا خلالها حرباً سافرة ، لأنه كان حركة دائبة وحربا عواناً عليها وعلى أعوان سلطانها المستبد . وضاقت السفارة التركية فى باريس بنشاطه ، وبشدة اتصاله برجال الحركة التركية المجددة من حزب « تركيا الفتاة » .

ولما لم تطب له الإقامة فى باريس لأنها لم تستطع حمايته من عدوان السفارة التركية ، عكف على تعلم اللغة الاسبانية استعداداً للهجرة إلى « شيلى » ، بيد أنه رأى السلام والسماحة والأمن فى ربوع وادى النيل ، فشد رحاله إلى مصر سنة ١٨٩٢ واندمج فى البيئة المصرية اندماجاً تاماً ، ساعده على ذلك دماثة خلقه وكرم طبعه . وفى جريدة الأهرام ظل يحرر إلى سنة ١٩٠٠ حتى أصدر مجلة مصرية ، عنى فيها بالشعر والنقد الأدبى ، ونشر فيها فصولا تاريخية وأبحاثا عن فكتور هوجو ، وعن الأدب الصينى . وأدلى بدلوه فى ميدان المال والمضاربات ، وما لبث أن أصيب بخسارة أودت بكل مدخراته ، ثم انتقل إلى التعريب والترجمة فاتصل بالممثل جورج أبيض بعد عودته من فرنسا وترجم له بعض مسرحيات شكسبير مثل : « عطيل ـ تاجر البندقية ـ هاملت ـ ماكبث » واشترك مع حافظ ابراهيم فى ترجمة سفر كبير يبحث فى شئون التجارة والمال أسمياه « الموجز فى الاقتصاد » . وأولع مطران بالتمثيل واشتد اهتمامه به ، فأسهم فى تأسيس شركة التمثيل العربى ، ثم عين رئيساً للفرقة القومية ، وظل بها إلى أن وافته منيته سنة ١٩٤٩ وقد أشرف على الثمانين من عمره .

ذلكم خليل مطران زعيم المدرسة التجديدية في الشعر الذي لم يجنح به التجديد إلى التنكر لأوزان القريض وقوافيه بل ظل محافظاً عليها . غير أن الظاهرة التي ترى بوضوح في معظم قصيده هي احتفاؤه بالفكرة واحتفاله بالمعنى ، أما الجرس الموسيقي والرنين اللفظي فلم يكونا موضع هيامه أو اهتمامه . فلا عجب أن أضاف مطران إلى القصيد العربي معاني دسمة وأفكاراً إبداعية استوردها من ثقافته الغربية ، وطعم بها الأغراض الجديدة التي ابتكرها في الشعر العربي ، وعزف بقيثارته الشعرية أنغاماً أوربية حديثة على أوتار عربية قديمة سحرت المحدثين وبهرت المجددين وأسرت لب من لا يرضون بالقديم بديلا . وبذلك صارت قصائده ذات وحدة فكرية مرتبطة الأجزاء ولم يعد البيت وحدة القصيدة ، كما كان عند شعراء العرب من قبل .

وكان تأثر مطران بالشاعر الفرنسي الإبداعي « الفريد دى موسيه » من الروافد الفكرية التي غذت أدبه بأنماط ميزته من غيره ولونت مزاجه الشعري وأثرت في مشاعره وأشعاره .

أما مطران العاشق ، فتفضحه قصيدته « حكاية عاشقين » التي

حكت قصة حبه العنيف العفيف — ومن أيام هذا الحب العذرى الذى انتهى بوفاة محبوبته ، ظل مطران العاشق عزبا لا يفكر فى الزواج حتى انطفأ سراج حياته وقد ملك عليه حب الحرية شغاف قلبه ، وسرت فى دمائه الثورة على القيود والأغلال ، ولم يثنه على التغنى بالحرية تهديد أو تشريد ، فقد أصدر المسئولون فى سنة ١٩٠٩ قانون المطبوعات ، وكان هدفهم من إصداره تحطيم أقلام المفكرين ، ووأد أفكارهم الهادية الهادفة حتى لا تصل إلى الشعب ، فأطلق مطران فى وجوه المسئولين آنئذ قذيفته المدوية وقصيدته التى صارت دستور الأحرار ونشيد الأباة ، والتى يقول فيها :

شردوا أخيارها براً وبحراً واقتلوا أحرارها حُرّاً فحراً
إنما الصالح يبقى صالحاً آخر الدهر ويبقى الشر شراً
كسّروا الأقلام هل تكسيرها يمنع الأيدى أن تنقش حجراً ؟
قطّعوا الأيدى .. هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزراً ؟
اطفئوا الأعين .. هل إطفاؤها يمنع الأنفاس أن تصعد زفراً ؟
اخمدوا الأنفاس .. هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم . فشكراً

ولم يكن من رئيس الوزارة وقتذاك إلا أن يهدده بالنفى ، فأرسل إليه يقول :

أنا لا أخاف ولا أرجّى ... فرسى مؤهبة وسرجى

فإذا نبا بى متن برٍّ ... فالمطية بطن لجُ

لا قول غير الحق لى ... قول، وهذا النهج نهجى

الوعـد والايعاد ما ... كانا لدىّ طريق فلج

وقد أثر مطران فى عدد كبير من الشعراء الذين أتوا بعده، إذ تتلمذوا عليه وأخذوا عنه طريقته الجديدة، وساروا بها أشواطاً طويلة، ولا سيما الوجدانيات وما يضفى عليها من مسحة الحزن وبث الشكوى والألم .. ومن هؤلاء الذين أعجبوا بمطران: أحمد زكى أبو شادى، وناجى وشيبوب بمصر. وأبو القاسم الشابى بتونس والتيجانى يوسف بشير بالسودان.

وقد ظهر أول ديوان لمطران سنة ١٩٠٨ وكان شعره موضع دراسات طويلة عميقة اهتماما به، وتقديراً لمكانته فى عالم الأدب.

الأديب الثائر الشاعر الذى بشر بالقومية العربية

فى بيئة شعبية ، وفى بيت دينى نشأ ابراهيم عبد القادر المازنى ذلك الأديب المعاصر والشاعر الثائر الذى صنع اسمه بنفسه فى دولة الأدب والشعر . .

تناوشته المحن منذ مولده واشتجر مع الزمن فى صراع منذ نعومة أظافره ، فقد تفتحت عيناه فلم ير فى محيط أسرته إلا مظاهر الفاقة والمسغبة ، ولما شب عن الطوق اختطف الموت أباه فحرمه الحب والحنو .

ولم تحل مرارة اليتم وشظف العيش بينه وبين إتمام تعليمه ، وعرفته مدارس القربية والتوفيقية والخديوية طالباً مجداً مكباً على التحصيل والمعرفة ، وحاول أن يخفف عن الإنسانية بعض آلامها بدراسة الطب والتخصص فيه ، لكنه لم يكد يضع قدمه فى حجرة التشريح بمدرسة الطب حتى أغمى عليه لشدة حساسيته ورقة مشاعره فتحول

إلى مدرسة المعلمين العليا وتخرج فيها سنة ١٩٠٩ وعمره وقتذاك عشرون سنة .

واشتغل بالتدريس ، وكان فيه كما قال صديقه الأستاذ عباس محمود العقاد قوى الشخصية رغم قصر قامته وعرجه بفضل تمكنه من مادته وغزارة معلوماته وبراعته فى الترجمة والتعريب . وبعد أن أنفق فى ميدان التربية والتعليم قرابة ثمانى عشرة سنة تركه إلى مهنة البحث عن المتاعب « مهنة الصحافة » وظل علماً من أعلامها حتى وافته منيته عام ١٩٤٩

ومن أشهر صفاته كثرة اطلاعه ، فكان يقرأ بشغف وفهم وبخاصة ما كتبه أعلام الغرب وأدباؤه عن آلام الحياة . لأن الألم كان يعصر فؤاده ويهز نفسه لحزنه على زوجته المتوفاة التى كان يكن لها الوفاء أعظم الوفاء ، ولحزنه على ابنته الوحيدة التى فارقت الحياة وهى فى عمر الزهر ، ولقصر قامته وعرجه اللذين سببا له ألما نفسياً دفينا . وغدا معظم أدبه آمرة صادقة تعكس حزنه وتصور شقاءه وبؤسه وكان شعره على مثل ذلك ينضح بالشكوى والأنين فلا عجب

إذن أن كانت عناوين قصائده « الوردة الذابلة » أحلام الموتى . بعد الموت . قبر الشاعر . الملل من الحياة .. الليل والهم . الشاعر المحتضر . حتى لقد رثى نفسه فى أكثر من قصيدة ومن قوله فى ذلك :

قضى غير مأسوف عليه من الورى
فتى غره فى العيش نظم القصائد
وقد كان مجنوناً تضاحكه المنى
وفى ريقها سم الصلال الشوارد
فعاش وما واساه فى العيش واحد
ومات ولم يحفل به غير واحد
فلم يبكيه إذ مات الا أجيرة
لها زفرة لولا اللهى لم تصاعد

ولكن هذه الآلام والمحن لم تقض عليه ، ولم تفض به إلى الانطواء والانكماش بل صقلت طبيعته الأدبية وقوت ثقته بنفسه وصيرته شاعراً مرهف الحس يصور آلام الإنسانية أروع تصوير وأصدقه . ودفعته طبيعته المتوثبة ونفسه الكبيرة إلى الثورة العارمة

فثار على الحياة والأحياء وقال فى ذلك :

سأقضى حياتى ثائر النفس هائجاً
ومن أين لى عن ذاك معدى ومهرب
على قدر إحساس الرجال شقاؤهم
وللسعد جوٌّ بالبلادة مشرب

وثار — وهو الشاعر الفحل — على الشعر القديم من حيث أغراضه وأسلوبه وموضوعاته فقام هو وزميلاه عباس العقاد وعبد الرحمن شكرى فى أوائل هذا القرن بتجربة جديدة فى الشعر ، تجربة تقوم على تغيير الموضوع إذ الشعر هبة وينبغى ألا توجه للزلفى والمديح ، بل توجه لما خلقت له من التعبير الصادق عن إحساس الشاعر بنفسه وبخواطره وبالكون وبالحياة البشرية فى آمالها وآلامها فنشأ يومئذ ما يسمى بالشعر النفسى أو الهمسى المعبر عن مشاعر الشاعر وأحاسيسه ، المتحرر من الوزن أحيانا . وثار المازنى على القافية الموحدة ، ولذا كان حافظ ابراهيم وقت أن أخرج ديوان شعره هدفاً لنقده المر اللاذع ، إذ اعتبره ممثلا لمنهج القصيدة القديمة المفككة الأبيات المعتمدة

على المبالغة فى المديح دون التعبير الطبيعى عن عواطف الشاعر ووجدانياته . وعاش المازنى على ما يجده قلمه وما تدبجه براعته وما تنتجه قريحته من رائع الشعر ورائق النثر ، وكان لقلمه الحر الثائر جولات وصولات فى ميدان الصحافة التى اشتغل بها أكثر من ثلاثين عاماً يكتب فى السياسة والاجتماع والأدب ، فنهض بالمقالة الصحفية وارتفع بها وفسح فيها لأول مرة مجالا لدراسات هادية هادفة من حياة أدباء غربيين وشرقيين ، ومازال كثير من نقادنا يعدون كتابات المازنى عن الشاعرين « بشار بن برد » و « ابن الرومى » من خير ما كتب عن هذين الشاعرين . ومقالاته فى الوطنية والسياسة تدل على كياسة صائبة وفراسة صادقة ونظر بعيد ، وهو يعد أول من آمن بالجامعة العربية فقد دعا إليها قبل بروز فكرتها بسنين طويلة وكتب سنة ١٩٢٥ تحت عنوان « القومية العربية » « لقد أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهما لاسند له من حقائق الحياة والتاريخ لوجب أن نخلقها . . فما للأمم الصغيرة أمل فى حياة مأمونة . . وأن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم

أكلا بلحمهم وعظمهم ، ولكن مليون فاسطينى إذا أضيف إليه مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلا يصبحون شيئاً له بأس يتقى » .

كان أديبنا المازنى من صميم الشعب ، فلم يعش فى برج عقلى بعيد عن الشعبية بل كان يشخص فى أدبه حياة الناس اليومية العادية ، ويعرض فى قصصه قطاعات وشرائح منتزعة من واقع الحياة ويصور المزاج المصرى الذى يميل إلى الدعابة والمزاح ، حتى فى لغته وتعابيره كان يستخدم الألفاظ العامة الدارجة الدائرة على الألسن والشفاه ، وتضمنت كتبه حصاد الهشيم ، وصندوق الدنيا ، وخيوط العنكبوت ، تضمنت كثيراً من مقالاته الاجتماعية ذات الأسلوب الساحر الساخر .

وترك بجانب ذلك ثروة من القصص الطويلة والقصيرة مثل « ثلاثة رجال وامرأة — ميدو وشركاه — عود على بدء » ومعظمها قصص اتخذ مادتها من حياته وأحداثه فى دنياه حتى لقد تتحول بعضها إلى مايشبه الاعترافات ففى قصتيه « ابراهيم الكاتب » و « ابراهيم الثانى » تصوير

دقيق لحياته وما مر به من حوادث وما يجرى فى ذهنه من ذكريات وتحليلات نفسية وتأملات عقلية .

وقضى ذلك الصحفى المجدد والناثر الثائر وهو يدعو الأدباء إلى اتباع مذهبه وأسلوبه فى الكتابة باستخدام الألفاظ العامية ما دام لها أصل صحيح ، وما دام يحتج لفصاحتها كل معجم عربى أصيل .

الحاج "هيدلي" اللورد الانجليزي المنصف

فى يوليو سنة ١٩٢٢ أقلعت من إحدى الموانى البريطانية باخرة متجهة صوب الشرق ، وظلت تمخر عباب اليم وتشق أمواجه حتى وصلت ميناء الاسكندرية ، فخف لاستقبال بعض راكبيها جمع حاشد على رأسه الأمير عمر طوسون والأمير السنوسى ، ورئيس وزراء مصر آنئذ ومحافظ الثغر والعلماء والقضاة الشرعيون وقد أسرع هؤلاء جميعا إلى لقاء اللورد « هيدلى » رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية الذى كان فى طريقه إلى الأماكن المقدسة لاداء فريضة الحج مع أستاذه الهندى « خواجا كمال الدين » رئيس الجمعية الإسلامية بودكنج .

وشهد فندق سافوى فى الاسكندرية غداة وصول اللورد أول احتفال روحى كرم فيه أول انجليزى منصف حر التفكير ، وصل عن طريق عقله وبحثه إلى دين الفطرة

فاعتنقه على الرغم من نشأته وبيئته وأمته الشديدة التعصب العاتية على من خالفها فى تقاليدها ومعتقداتها ، وأول من وقف وحيدا يقرر دينا يخالف دين أمته وينادى بما لاتعرفه بل تعاديه ، ويقرعها بالحجة منفقا كل مرتخص وغال فى سبيل الحق ودعوة قومه إليه .

ووقف فى حفل تكريمه ينعى على قومه الإنجليز ويقول « نحن معشر الانجليز ملأنا سمع الدنيا ضجيجا وعجيجا بأننا نحب النصفة والعدل ولكن ماذا أعظم جورا من الحكم الذى يصدره كثير منا على دين محمد من غير أن يجتهدوا أو يحاولوا أن يعرفوا ولو مجملا مختصرا عن عقائد وقواعد تلك الشريعة القوية القويمة ؟ »

قد يظن البعض أنى غلبت على أمرى أو تسلط على المسلمون حتى أسلمت ، ولكن الحقيقة التى لامراء فيها أن اعتقاداتى الحالية ما هى إلا نتيجة بحث وتنقيب ودراسة ظلت سنوات عديدة . ولقد خرجت مع معتقداتى هذه بحقائق أخرى جهلها الغرب أو تجاهلها وتعامى عنها ، فالإسلام يرضى أشرف رغبات النفس ولا يناقض تعاليم موسى أو المسيح . أما

معظم ديانات الغرب فما هى فى الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى وبقايا العصور المظلمة ولا تتفق مع تعاليم الرسل والأنبياء . إن روح الإسلام لتحلق فوق أشياء أرقى وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية فى الشرق والغرب . وإذا كانت المسيحية الشرقية قد سارت سيراً حثيثا فى إضاءة طريق العالم الإنسانى ، فلماذ لايستمر الدين الإسلامى كما أتى النبى العربى فى أعماله الهادية الهادفة مادام ليس هناك سبب جوهرى يمنع ذلك ؟ ! »

هناك شبه عظيم بين أخلاق الأنبياء كما يتضح لكل باحث فى حياة محمد عليه السلام ، كما أن الدراسة الدقيقة للقرآن تظهر أن ليس فى الإسلام شىء يتعارض مع الديانات السابقة ، وإرشادات وشريعة محمد كما جاءت فى الكتاب تقرر وتعزز تعاليم الإنجيل تعزيزا قويا وتوسعها حتى تلائم حاجات الزمن الحاضر » .

وقد وصف ذلك اللورد المنصف فى بعض كتبه أتباع محمد بقوله « إن المسلمين الأوفياء المخلصين ماحاولوا أن يقيموا شريعتهم وينشروا عقيدتهم بالطرق العنيفة ، إذ من

مبادىء الإسلام السامية « لا إكراه فى الدين » والمسلمون من أجل ذلك متسامحون مطبوعون على أيتاء الخير للغير ، عاطفة المحبة سائدة بينهم بأوسع معانيها ، أما فى الجزر البريطانية فتتفقد وتبحث عن تلك العاطفة فلا تجد لها إلا أثرا ضئيلا لايذكر »

ولذلك اللورد الذى تسمى بعد إسلامه باسم « سيف الرحمن رحمة الله هيدلى » كتب قيمة نشرها فى أوربا وانجلترا وكلها إشادة بالإسلام وإشادة لمبادئه وتقريب أصوله إلى أذهان الغربيين وتقرير حقائقه وتبيان أركانه لمن جهلها من الأوربيين ، ومن أشهر كتبه التى ترجمت للعربية كتاب « إيقاظ الغرب للاسلام » وله فوق ذلك رسائل متبادلة بينه وبين بعض أصدقائه المستنيرين كلها نقاش علمى ومجادلات دينية مدعمة بالأدلة والبراهين . وكان رائده من ورائها أن يهديهم إلى ما اهتدى إليه . ومن أشهرها مراسلاته مع الدكتور « أرثر روبرتس » التى كانت تدور حول حكم الإسلام وأحكامه ولاسيما غفران الله للذنوب وعفوه عن الخطايا من غير وساطة وسيط أو شفاعة شافع . ولقد أبان اللورد فى بعض كتبه خطأ اعتقاد

السذج والعامة الذين يتقربون إلى الله بوساطة التوسط والتوسل بالأولياء والقديسين معتقدين أنهم همزة الوصل بينهم وبين خالقهم وأن التوبة لاتقبل إلا عن طريقهم . ولم يكتف اللورد فى الميدان الدينى برسائله ونشراته بل تجاوز ذلك إلى هداية الناس بنفسه وكان يلقى من البعض استجابة ومن الآخرين نفوراً وإعراضا وفى ذلك يقول « يعز على ألا يؤمن بعقيدتى لفيف ممن دعوتهم بنفسى إليها ولكن يكفينى أنى قد عرضت عليهم الدين الذى أتى به محمد من عند ربه ، والهدى هدى الله الذى يقول « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » .

وكانت أمنيته أن يصبح كل فرد انجليزى مسلما قلبا وقالبا محمديا حقيقيا بقلبه وروحه وكان يقول « لوتم ذلك لساد السلام ولأصبحت الحياة أيسر وأسهل ، ولم تجد هناك جمعيات ولا منشقين كى يوفق بينهم ، ولا ضرائب ثقيلة للمرور فى الطريق الموصل إلى الفردوس »

زكي مبارك .. الفنان المشاغب

شب زكى مبارك فى قرية « سنتريس » تلك القرية التى آشبب بها وتغنى بجمالها فى كتاباته ومقالاته على « باريس » . وتقع سنتريس على الرياح المنوفى ، وفيها نشأ على الصفات الريفية الأصيلة ، ومنها ظل يكافح وينافح فى طلب العلم حتى انتقل من كتاتيبها إلى كليات جامعة باريس .

وكانت حرية الفكر نزعة قد استبدت به منذ صباه ، فانطلق فى أجواء أدبية ومناحى علمية متع بها حسه وأرهف بواسطتها مشاعره ، وغذى فيها روحه وعقله ، واستمر يخلط بنفسه ويذيب فيها ما فى الشعر والأدب من أخيلة وصور ، وما فى علوم الأولين ومعارف القدامى من أسرار ومعان حتى أخذ من كل فن بطرف .

ومن أجل ذلك قال عنه المرحوم الأستاذ محمد جاد المولى بك بعد أن وصفه بأنه الرجل الذى أنفق شبابه فى الدراسات

الأجنبية والفلسفية ، وتراه حين يجادل فى الدقائق الفقهية كما صنع فى تحقيق كتاب « الأم » فتضيفه إلى زمرة الفقهاء ، وحين تراه يجادل فى المعضلات النحوية تضيفه إلى النحويين ، وتنظر فى كتابه « النثر الفنى » أو كتابه « الموازنة بين الشعراء » فتحسبه رجلا لا يحسن غير النقد الأدبى ، وتقرأ رسائله العاطفية ودراساته للعشاق من الشعراء فيخيل إليك أنه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاعتناق بهوى الغيد الرعابيب ، وتنظر رسالة اللغة والدين والتقاليد فتعده من كبار المصلحين ، وتنظر مقالاته فى التربية والتعليم فتراه من أقطاب المربين ، وتقرأ هجومه على الشعراء والمؤلفين فتخاله من الهدامين ، وتسمع عن أخباره فى الأندية والمجالس وأحاديث رحلاته إلى البلاد الشرقية والغربية فتعتقد أنه من المولعين بدراسة أخلاق الأمم والشعوب » .

وقد قال الدكتور زكى مبارك عن نفسه « . . أعوام عجاف مررت بها لو ابتلى بمثلها أصبر الصابرين وأشجع الشجعان لألقى السيف وطوى اللواء . فقد كنت فى حرب مع الناس والزمان ويا ويح من ابتلته المقادير بافك الناس وغدر الزمان . ولكن الله عز شأنه لم يخلق الشر إلا لحكمة عالية فقد قويت

عزيمتى بفضل ما عانيت فى حياتى من ضروب الاضطهاد واستطعت أن أقيم الدليل على أن الظلم قد يعجز عن تقويض عزائم الرجال . وهل كان من هواى أن أسرف على نفسى مثل الذى أسرفت فأقضى عشرين سنة فى الحياة الجامعية بين القاهرة وباريس كانت كلها نضالا فى نضال ؟ وهل كان من هواى أن تخلو حياتى من الهدوء والطمأنينة فلا أصبح ولا أمسى إلا فى عراك وكفاح ؟ .

هل كان من هواى أن أنتهى إلى ما انتهيت إليه فلا يكون لى من نعيم إلا ما أصوره بقلبى من حين إلى حين لأوهم نفسى أننى أعايش الأحياء ؟ تباركت يا ربى وتعاليت فلولا لطفك وتوفيقك لما استطعت بفضل الجد أن ألقى أهل زمانى بالكبرياء والاستطالة » .

ولن نتحدث هنا بعد ذلك عن حياته الأدبية، ولا عن آثاره الفنية ، ولا عن تاريخه العلمى الحافل بالجهاد والجلاد ولن نتحدث عن شعره ، وكثير لا يعلمون أنه شاعر وله ديوان مطبوع قرظته الصحف عند ظهوره ، ولن نتحدث عن مؤلفاته التى نافت على الثلاثين كذكريات باريس — ومدامع العشاق ،

والأخلاق عند الغزالى ، وعبقرية الشريف الرضى والتصوف الإسلامى ، ولـكن سنتعرض هنا لجوانب إنسانية وزوايا عاطفية تـكاد تـكون مجهولة فى حياة هذا الأديب ، وسنعرض مواقف له تـكشف عن إنسانيته وتشف عن روحه التحررية التى تمقت الهوان والعبودية ، وتعرب عن نفسيته الساخرة من شدائد الأيام المستهينة بالصعاب والعقبات . وها هى ذى بعض فقرات مختارة من حديث صحفى له معى نشر فى ٣١ / ١ / ١٩٥ كانت سداها الصراحة ولحمتها الحقيقة ، وهى تذبض بإنسانيته المثالية وتنبىء بعاطفته القويةالنابعة من قلب كبير ، سألته : أيهما تفضل أن يكون الإنسان عبداً فى جنة أو سيداً فى جهنم ؟ فأجاب : أنا أكره العبودية ويرضينى أن أكون سيداً فى جهنم ولى هناك أخوان ينتظرونى على أحر من نارها .

وسألته : من لقبكم بالدكاترة ؟ ومتى ؟ولماذا؟ فقال : كنا قد أقمنا حفلا بدار الإتحاد النسائى ندعو فيه إلى إباحة الانتساب إلى الجامعة فألقيت خطبة وألقى الشاعر اسمر قصيدة جاء فيها هذا البيت :

هـــذا زكى لم يزل متتلمذاً

وله تلامـــذة هم العلماء

ثم قال « ويعجبنى طموح الدكاترة زكى مبارك . والتسمية هذه صحيحة فعندى ثلاث دكتوراهات : الأولى أخذتها من الجامعة المصرية سنة ٢٤ والثانية من جامعة باريس سنة ١٩٣١ والثالثة من جامعة فؤاد سنة ٣٧ » ولما استفسرت منه عن ذكرياته الأليمة قال : إنها كثيرة وأشهرها « يوم جعت فى باريس » فأوحى ذلك إلى قصيدة « غريب فى باريس » وأغرب من ذلك الجوع الذى أصابنى فى « الموصل » فرجعت وأنا أقرأ قول رسول الله عليه السلام « إذا أحب الله عبداً جعل رزقه فى بلده » . سألته : هل تذكر تاريخ أول مقال نشر لك وفى أية جريدة وما عنوانه ؟ قال : أول مقال نشر كان فى جريدة « الأفكار » سنة ١٩٠٤ بعنوان « البدائع » وقد صار ذلك العنوان اسم كتاب لى فيما بعد طبع ثلاث مرات.

وقلت له : ما الموقف الذى أثار شعورك يوم أن كنت منتشاً فى المدارس ؟ فأجاب : عند مراجعتى لأوراق الإجابة فى الامتحانات بذلت قصارى جهدى لينجح تلميذ بتموق فى اللغة العربية لأنه كتب فى موضوع الإنشاء أنه إن نجح فى الدور الأول فسيسافر مع أهله لقضاء الصيف فى

لبنان وإلا فسيقضى الصيف فى القاهرة . وما دفعنى إلى إلحاحه إلا شعورى بمعنى الأبوة وهو شعور لا يتصوره إلا من يعانيه ! ! . وأخيراً قلت له : إذا قضى الله أن تموت بعد عمر طويل فما هو قولك يوم الحساب ؟

فقال : سأقدم إلى الله مقالاتى وكتبى التى خدمت بها لغة القرآن . وأسأل كيف صار الدكتور طه حسين وزيراً للمعارف لأنه اشتغل بالتحرير سنة واحدة فى البلاغ ولم أصر أنا وزيراً مع أنى اشتغلت بالتحرير فى البلاغ عشرين سنة .

حجة الاسلام .. الذى آمن بالشك وكفر بالفلسفة

يروى عن صحابى جليل أنه قال « إن الله تعالى يبعث لأمة محمد على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

وقد اتحدت آراء جلة العلماء على أن مجدد المائة الأولى عمر بن عبد العزيز والمائة الثانية الإمام الشافعى والثالثة الإمام الأشعرى والرابعة الباقلانى ، أما مجدد المائة الخامسة فهو حجة الإسلام الغزالى .

وهؤلاء المجددون لم يبتدعوا فى الدين جديدا ، ولم يضيفوا إليه مستحدثا أو غريبا ، إنما كان تجديد الدين على أيديهم بتحديد معالمه وتجديد نفوس أهله ، وتبديد ماران على القلوب من غشاوة الأباطيل وظلام الترهات وضباب الأوهام . والأمة الإسلامية كـكل أمة توالت عليها غير وأحداث وأزمان وأزمات أنزلتها من سامق مكانتها

وشاهق منزلتها إلى مهاو سحيقة من التأخر والاضمحلال فتطامنت مكانتها وتزعزعت عقيدتها . . .

وفى العصر الخامس الهجرى الذى بلغت فيه الدولة العباسية أقصى مراتب التحرر الذهنى والترف الفكرى طغت الأباطيل على الحقائق وترنحت أصول الدين تحت لطمات المادية الدنيوية الطاغية . . وفى هذا العصر ظهر عملاق عبقرى وقائد ملهم ومصلح دينى رأى الإسلام شكليات وطقوسا آلية لاروحانية فيها ، فقاد الأرواح والأفئدة إلى الإيمان الكامل والإسلام الصحيح . . وما كان ذلك العملاق إلا الغزالى .

يقول الدكتور «رويمر» : كل باحث فى تاريخ الإسلام يلتقى بعد النبى محمد بثلاثة من الفطاحل العظام : البخارى ، الأشعرى ، الغزالى . . وتلك قولة حق ، فقد كان الغزالى ممن شيدوا دنيا الفكر الإسلامى وأقاموا هيكله على أسس دينية وطرائق صحيحة . . وهو الذى مزج العقائد بالعبادات . . . وخلط أصول الشريعة بالتصوف . . وهدى الأفئدة إلى إيمان قوى قويم سداه عبادة الله ومحبة له وفناء فيه

ولحمته وفاء للناس وإخلاص لهم . يقول العلامة ماكدونالد :
« إن الغزالى لم يكن كشافا ولا أول من ركب الطريق واهتدى إلى الوهاد والنجد ، ولكنه كان رجلا كبير الشخصية شديد التأثير النفسى ، نهج سبلا مطروقة فجعلها مشرعا عاما ومحجة واضحة وهذا بفضل شخصيته وقوة خليقته » . ولم يكن السبيل الذى أوصل أبا حامد الغزالى إلى تلك المكانة العلمية العالية سبيلا معبدا بل كان صراعا ومغالبة . . صراعا مع نفسه وعلمه . . وصراعا مع بيئته ومعتقداته .

لم يرض بما جمع من زاد على حصله طيلة سنوات ثلاث انقطع خلالها انقطاعا تاما إلى البحث والدرس فانتقل من طوس — مسقط رأسه — إلى مدينة النور والعلم فى عصره . . إلى نيسابور ، عله يجد فى رحابها مايطفىء عطشه العلمى . .

وكان مقصده من محاورته ومداوراته مع العلماء أن يصل إلى الاستقرار القلبى والعلم اليقينى . . . فإذا به يجد بضاعتهم العلمية لاترضى شعوره الدينى . . وإذا آراؤهم المتباينة ونحلهم المتعددة لاتوصله إلى الهداية ، ووجدهم

لايبتغون من العلم إلا المركز والجاه ، فاذا ما وصلوا إليهما انقطعت الصلة بينهم وبين المعرفة ، وتهالكوا على متع الحياة يعبون منها عبا ، فكفر بهم . . وغدا حربا على عملهم ، واتجه إلى الفلسفة ينشد لديها الإيمان الحق ويرجو عندها العقل والروح والقلب .

وانفجرت فى أعماقه منذ ذلك الحين بوادر الشك . . . الشك فى العلم والشك فى الفلسفة ، فناقش العلماء بروح الساخر وجادل الفلاسفة بروح المستهزىء بهم المستهتر بنظرياتهم وقامت بينه وبينهم ملاحم علمية أضافت إلى التراث الفكرى الاسلامى كنوزا من المعرفة لايزال شعاعها إلى الآن وضاح السناء ساطع الضياء . وأرجحه الشك بين الإيمان والمادية ثم دفعه فى النهاية إلى التحرر الفكرى فتخلى عن مثله العليا وقيمه الرفيعة .

وغادر نيسابور إلى بغداد يبغى فيها متاع الجسد . . ومتاع الروح وهناك التقى بأميرها « نظام الملك » الذى ولاه التدريس بالكلية النظامية حتى أوصله إلى منصب الاستاذية فيها ومن هناك أيضا طارت شهرته وتناقل الناس آراءه

وفتاواه الشرعية وأخذ فى تأليف كتبه التى خلدته وأبقت ذكره على الزمن . ووجه نظام الملك — وكان من المتبحرين فى الصوفية ـ نظر الغزالى إلى التصوف ، ولكن الصوفية بإشراقها وروحانيتها لم تستطع أن تخفف من سموم الشكوك التى كانت تؤرقه وتقلقه . . . وكان لهب الشك يحرقه فى صمت . وقد أوضح فى كتابه « المنقذ من الضلال » تلك الفترة من حياته فقال : « . . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قرابة سنة » وأخيرا جاء دور العمل وجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، وقد قفل الله لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لنفوس المختلفين إلى ، فكان لاينطق لسانى بكلمة ولا يستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ضعفت معه قوة الجسم وبطلت قوة الهضم حتى قطع الأطباء أمالهم من العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج ، وسبحت بفكرى إلى التدريس الذى لم يكن مقصدى منه إلا طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى قد أشفيت على النار إن

لم أبدل تلك الحال . وصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل . . . الرحيل ، ولما أحسست بعجزى التجأت إلى الله التجاء المضطر ، فأجابنى وسهل على الأعراض عن المال والجاه والأولاد والصحاب .

وفارق الغزالى بغداد بعد أن فرق ماكان معه من مال ولم يدخر لعياله إلا الضرورى من القوت .. وانطلق هائما فى سبحاته سائحا فى تأملاته . . وفى رحاب بيت الله الحرام اعتكف وتقشف ليعرف الله عن طريق الاتصال به ، وبعد أن تطهر فكرا وعقلا وروحا وصل إلى الله ثم خرج على الناس الذين كانوا يسيرون فى متاهات الحياة بلا هدف ولا غاية ، تمزقهم البغضاء وتفرقهم المطامع والأهواء فدعاهم إلى السلام والراحة وأمان الروح وهداهم إلى أن الله لايدرك بالمنطق والكلام ، بل هو نور ينكشف لقلب المؤمن المتجرد من قيود المادة .

ومن البيت الحرام ارتحل إلى دمشق ثم قفل راجعا إلى نيسابور واشتغل فيها بالتدريس ردحا من الزمن دون

أن يتخلى طيلة هذه الأعوام عن حياة التنسك والتصوف والتأمل والتفكير . . . وبعد هذه السياحات الحافلة بالعلم والعبادة والانتاج رجع إلى طوس ، فوزع أوقاته فيها بين تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب والكشف الباطنى . إلى أن جاء يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الأخرى سنة ٥٠٥هـ ويحدثنا أخوه عما حدث فى ذلك اليوم فيقول « فى صباح هذا اليوم توضأ أخى الإمام وصلى وقال على بالكفن فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال سمعا وطاعة للدخول على ملك الملوك .. ثم مد رجليه واستقبل القبلة وصعدت روحه إلى بارئها » ، وقضى تاركا وراءه تركة علمية وميراثا ثقافيا خلفه للعلماء فى الأخلاق والتصوف والفقة والالهيات .

ومن أشهر كتبه الفلسفية « المعارف العقلية » و « مقاصد الفلاسفة » وقد ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٠٦ فى البندقية .

وقد دهش الناس حينما رأوا الغزالى يبسط فى هذا الكتاب بأمانة مذهب الفلاسفة الذين عاداهم وهاجمهم بكل قوة . ثم « تهافت الفلاسفة » وهو أهم كتبه الفلسفية لأنه

رد فيه على ابن سينا ، ثم كتابان كتبهما للخاصة لا للجماهير وهما « مقاصد المقاصد ، والمضنون به على غير أهله » أما اعترافاته وتاريخ حياته فقد دونهما فى كتابه « المنقذ من الضلال » وقد ترجم إلى الفرنسية مرتين . .

وظهرت للمنقذ طبعة عربية جديدة حققها ووشاها وعلق وقدم لها الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين .

ذلكم هو الغزالى ذو الفكر الملتهب والعقلية المتأججة الذى قال عنه الإمام المراغى « . . إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ولم يخطر بالبال رجل واحد بل رجال متعددون لكل واحد خطره وقدره ، يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر ، والغزالى الفقيه الحر والغزالى المتكلم إمام أهل السنة وحامى حماها والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ، والغزالى الفلسيوف أو الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف والغزالى المربى الصوفى الزاهد وإن شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل واحد هو دائرة معارف عصره » .

فنان فرنسي يجند مواهبه للدفاع عن الإسلام

فى متحفى « اللكسمبرج » و « يور » بفرنسا ، تعرض الآن لوحات تصويرية وشتها يد صانع ماهر ، ولونتها ريشة تنم عن مشاعر صانعها الفنان الفرنسى « اتيين دينيه » وتدل على قدرته الفنية فى رسم الصحراء وأجوائها ، فقد أشرب قلب الفنان الكبير « اتيين دينيه » حب العرب واستهوته حياتهم فخرجت ظلاله ولمساته رسوما حية تعبر عن حياة العرب وبيئتهم . وتنطق بصفاتهم ممثلة لحروبهم وبطولاتهم .

ودفعه حبه للعرب وغرامه بهم وهيامه بجلالهم إلى أن يعيش بينهم ويجوس خلال ديارهم ومضارب خيامهم ، ثم استقر بعد تطوافه وتجواله فى بلد « بوسعادة » من بلاد الجزائر الكريمة التى يصطرع فيها الحق مع الباطل ، وتتقاتل فيها خسة الاستعمار مع عزة الكرامة ، واتخذها وطنا ثانياً له . وفيها دفن جثمانه سنة ١٩٢٩ . تنفيذا لوصيته .

كان من الطبيعي لمن يتصل بالعرب ويعيش بينهم أن يسمع عن عقيدتهم ويعرف الإسلام وأصوله ورسوله ورجالاته ... وما لبث هذا الفنان الفرنسى أن عرف الكثير من دين العرب .. وسرعان ما أحبه ووقف حياته الفنية وقدراته ومواهبه على تصوير الحياة الإسلامية ، وإبراز مشاهد هذا الدين ومشاهيره وتجسيم معالمه ومعاركه ، واستيقظت فيه بعد ذلك طبيعته المتدينة فكان — وهو الفنان — يكثر من التفكير ويسبح بخياله فى ملكوت الله يريد أن يخترق الحجب ويكشف المستور ويصل ... إلى الله . وغدا فنانا يتملكه شعور دينى يغمره ويسيطر عليه شعور فنى وامتزج فيه الفن بالدين ، فكان مثلا واضحاً للإنسان الملهم ولما انتهى تطلعه الدينى إلى رفض بعض العقائد الدينية المبهمة بلغت حيرته أشدها ، ولكن اليأس لم ينفذ إلى قلبه .. وإذا لم يجد الهداية الآن فليس معنى ذلك أنه لن يجدها . إن الحقيقة عزيزة المنال ولكنها موجودة والسبيل إليها البحث . . والبحث المتواصل . ومن أجل ذلك فكر فى قلق وعمق ثم أطال التفكير فى الاله وصفاته ووحدانيته . ثم هدأ ضميره الدينى ، فقد خرج من نتيجة دراساته للعقائد

ومقارناته بين الأديان بنتيجة استراح إليها وآمن بها وهى أن الله منزه عن الشبيه والشريك ليست له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . تأمل فى الكون وبحث فى النصوص المقدسة فأسلمه كل ذلك فى النهاية إلى الإسلام . وفى اجتماع حافل بالجامع الجديد بمدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ أعلن إسلامه رسميا واختار له اسماً إسلامياً « ناصر الدين » . وكان هذا الاسم يحدد اتجاهاته ومنهجه فى حياته الجديدة ، فقد رأى أن عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الإسلام ويهاجمانه فى عرينه هما : رجال السياسة الاستعماريون ، ورجال الدين المتعصبون . ولابد لكى تكون نصرة الدين كاملة من أن يقضى على هذين العنصرين ويناجز فى الميدان الدينى أخطبوط التعصب الذى نفث سمومه وبث شروره والذى اتخذه الاستعمار أداة تمزيق للشرق وتفريق لشمل الوحدة العربية .

وفى الميدان السياسى رأى أن الاستعمار قد امتدت جذوره وتوغلت فى أرض العروبة منذ مئات السنين وأنه اتخذ ذريعة لذلك أقنعة مختلفة وأردية متعددة ، فمرة يسمى

باسم « الوصاية » أو « الولاية » ومرة يتستر تحت رداء « الحماية » حماية الشعوب المتخلفة من أن يعتدى على حرمتها معتد . وقد تذرع المستعمرون بكل هاتيك المسميات ليمكنوا لأنفسهم فى البلاد التى استذلوا أهلها واستغلوا خيرها واستمرأوا تحطيم مقوماتهم ومثلهم العليا ورأى المرض السياسى يستشرى فى جسد الشرق فصيره كالكهل المحطم الذى ينوء بما يحمل على كتفيه من أثقال الاحتلال وبما يحمل بين جنبيه من نفس سوداء قاتمة تراكمت فى أعماقها رواسب الاستعمار البغيضة . وحز فى نفسه أن يرى الاستعمار يشيد بأساليبه وإمكانياته فى كل بلد عربى صرحا منيعا تتكسر عليه نهضات العروبة وتطلع ناصر الدين نحو غايته وهدفه . . نحو تخليص الفريسة من بين براثن الوحش الكاسر ، وكان طريق الخلاص وعراً مليئا بالصعاب والعراقيل لاتجدى فيه جهود فردية ولكنه لم ييأس — وهو المؤمن فتبنى قضية الشرق المظلوم ، وتولى الدفاع عنها على قدر طاقته لأنه لم يكن من أبناء السياسة ولا من محترفيها ؛ وأخذ

يقوم بجولات فى مدن أوربا يعرض فيها حالة الشرق على كل من يجد لديه روح النصفة بين الغربيين ذوى النفوذ ويبين لهم أن العرب الذين قدموا للغرب أجل الخدمات فى أحلك الأوقات ، يجب ألا يجزوا على خدماتهم جزاء سنمار ، وأن تحطم عنهم أغلال الاستعمار لينشطوا من عقالهم وينهضوا من رقدتهم . وأخذ ناصر يشيد فى كل ناد ومجتمع ، بعظمة الشرق وروحانيته وعلمه وعلمائه ويعلن بأن الظفر والنصر سيكتبان له فى النهاية مهما تألبت عليه قوى الشر ومهما قلل من شأنه الواهمون الموتورون .
ومن أقواله :

« إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة وإن الغرب يخطىء إذ يظن أن الشرق لايستحق العناية مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة » .

وكان صوته يدوى فى كل محفل باريسى ليوقظ حكام

فرنسا وينبههم إلى أن مصالح بلادهم الحيوية لاتستقر
إلا بالاتفاق الودى والتفاهم مع الإسلام، ويلفت نظرهم إلى
ما أداه لهم المسلمون من مساعدات فى ميدان الحروب
ضد أعداء فرنسا . ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا
الميدان ، بل من أقسى لطماته لهم أنه حينما ألف كتابه
« حياة الرسول محمد » أهداه لأرواح الجنود الإسلامية التى
استشهدت فى الحرب الكبرى وهى تحارب فى صفوف
الفرنسيين . وكتابه هذا واحد من كتبه العديدة التى
أخرجها عن الإسلام وقد ترجمه أخيراً الدكتور عبد الحليم
محمود أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية أصول الدين وأسماه
محمد رسول الله .

وقد توخى فيه ناصر الدين الدقة العلمية وتناول برأى
العليم ونظرة الخبير وفراسة المؤمن نواحى من سيرة
الرسول الخطرة لم يسبقه إليها سابق ، ولم يطرقها مؤرخ
من قبله ، وفند فيه مزاعم المستشرقين الذين لم يقم لانتاجهم
فى تاريخ السيرة وزناً لأنهم فى نظره لا يفهمون السيرة

النبوية ويريدون أن يزيفوها ويطمسوا معالمها ويطفئوا نورها ، فهدم بذلك النظرية الشرقية التى تكاد تقدس المستشرقين وتفتتن بهم ، وهون من شأن الهالة التى تحاط بأعمال المستشرقين وحكم بأن الافتتان بالمستشرقين وهم لا أساس له !!

وقد أحرزت قضية الشرق السياسية على يد ناصر الدين محامى الإسلام ورسول السلام بين الشرق والغرب، أحرزت نجاحاً لا يستهان به ، وليس ذلك بكثير على مؤرخ منصف وداعية مسلم وغربى روحه شرقية عقيدته محمدية يتمنى لها الذيوع ويود لها الانتشار ويعبر عن أمانيه هذه فى كتابه « الحج إلى بيت الله الحرام » فيقول : «لو كان الإسلام الحقيق معروفا فى أوربا لكان من المحتمل أن ينال كثيراً من العطف والتأييد فإنه والحق يقال يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة وباشتماله على روح التصوف كما يذهب إليه الصوفية يهدى علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم ويجدون

فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم ، إنه يرقى بروح رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب ويسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر ، ويسحر لب الطبيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم وبما فى الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معاً »

الشيخ رينيه جينو.. الفيلسوف المسلم

على بعد أكثر من مائة كيلو متر من باريس تشمخ بأنفها إلى السماء قرية ريفية صغيرة هى قرية « بلوا » التى أطلق عليها فيما بعد اسم « قرية المشاهير » لأن معظم أبنائها كانت تميزهم صفات خاصة بهم وسمات مميزة أوصلتهم إلى بعيد الشهرة ورفيع المكانة . وفى سنة ١٨٨٦ شهدت هذه القرية مسقط رأس الطفل « رينيه جينو » ذلك الطفل الذى غدا شخصية الهية لها خطرها وأثرها فى ميدان العلم الصحيح والمعرفة الحقة . كانت روح رينيه طلعة متوثبة لم يقر لصاحبها قرار ولاسيما فى مطلع حياته عندما التحق بجامعة باريس فقد تصارع صفاء روحه مع شوائب المادة التى غمرت كل شىء حوله . . حتى كتب النصر أخيراً لروحه الشفافة الصافية التى دفعته إلى التطلع والمعرفة . . فكان يتطلع إلى السماء يريد أن يخترق الحجب وأن يكشف القناع

وأن يهتك المساتير ليصل إلى الحق وإلى المعرفة . . وكان له ما أراد . . وهكذا شأن الفلاسفة والربانيين فى فجر حياتهم يعانون فترات من القلق تتصارع خلالها نفوسهم مع آراء عارمة وتتجاذب أفئدتهم مع نوازع جارفة فيتأرجحون بين الشك واليقين ثم يخرجون أخيراً من البوتقة وقد انصهرت آراؤهم وتخلصت أرواحهم من أوضارها وصفت أنفسهم من أدرانها وكشف الله عن بصيرتهم . فإذا هم يبصرون نور الله ، وإذا آراؤهم هادية هادفة وإذا أفكارهم واعية صائبة تشع من عقلية تقدمية تحررت من آثار الجهالة والتقليد هذه هى الحالة التى اعترت رينيه جينو ، وهى نفس الحالة التى اعترت من قبله فيلسوف الإسلام الغزالى والتى قال عنها « لم أزل فى عنفوان شبابى منذ أرهقت البلوغ اقتحم لجة هذا البحر العميق بحر المعرفة وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة ، واقتحم كل ورطة واتفحص عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا إلا وأريد

أن أعلم كنه ما عنده ، وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمرى وريعان شبابي غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، ورغماً من اختيارى حتى انحلت عنى رابطة التقليد . . »

وتتلمذ رينيه على يد عالم مصرى جمع إلى الحكمة علماً فياضاً وإلى التدين شجاعة أدبية ذلكم العالم الجليل هو الشيخ محمد عليش الذى يعد أشهر عالم مسلم فى عصره ، إذ لم تأخذه رغبة ولا رهبة ، ولم يخش لومة لائم فى قولة الحق ولم يبال بما تجره الجرأة فى الحق على صاحبها من تبعات لذلك لم يكن عجباً أن افتى ذلك الشيخ — بعد أن خطب فى سنة ۱۸۸۲ ممتدحاً الجيش المصرى ورجاله وقواده الذين خلصوا البلاد من الوقوع فى يد الأعداء — أفتى بخروج الخديو توفيق على الشريعة ومروقه من الدين وخيانته لعقيدته وأمته . .

وفى سنة ۱۹۱۲ خرج رينيه جينو من ظلمات الشك إلى نور اليقين فأسلم ... ثم تعمق فى دراسة أصـــول الإسلام وفروعه وولى وجهه ناحية التصوف الإسلامى

فصار علماً من أعلامه وتسمى باسم « عبد الواحد يحيى » وحمل على الماسونية وأبان معايبها وسوءاتها فأثار سخط الماسونيين ، ولما كشف عن انحراف البروتستانية غضب عليه البروتستانيون كما غضب عليه الذين ينتسبون إلى الروحية الحديثة بعد أن انتقدها ووصفها بالزيف والبهتان . .

وملكت عليه الأبحاث الفلسفية نفسه ووقته فتفرغ لها واعتزل من أجل ذلك التدريس فى بلاد الجزائر حيث كان مدرساً للفلسفة فى مدارسها ، وكان من ثمرة هذا التفرغ أن نشر كتابين له الأول : المدخل لدراسة العقائد الهندية والثانى : التيوزوفية تاريخ دين مزيف . وتوالت كتبه المختلفة بعد ذلك كما توالت مقالاته فى مختلف الجرائد الفرنسية وبذلك عقد صلة روحية صوفية بين الشرق والغرب . والتف حوله كثير من علماء الغرب وفلاسفته فاعتنقوا مذهبه وآراءه واهتدوا بهديه وفى مقدمتهم العالم الضليع الاستاذ « شون » .

ورنا ذلك الفيلسوف المسلم ببصره إلى الشرق مهد

الروحية وموطن الأنبياء ومشرق النور فقدم إلى مصر سنة ١٩٣٠ فى شهر فبراير من هذه السنة ... وبين بيوتات الأزهر مكث خمس سنوات قضاها كلها معتكفاً منفرداً دارسا باحثا زاهداً فى الاختلاط بعيداً من الحياة العامة إلا ماتفرضه الضرورة وتحتمه الظروف . . كان جل همه أن ينشر فى مصر الثقافة الصوفية الصرفة الخالية من الشوائب ، والخرافات الخالية من الأوهام والترهات .

غير أن ميدانا فسيحا مترامى الاطراف كميدان الصوفية الحديثة التى لم تتهيأ معظم الأذهان لتقبلها ، ولم يتوفر فى مصر على دراستها والتخصص فيها والعمل على نشرها آنئذ إلا قلة قليلة . هذا الميدان الفسيح لاتجدى فيه جهود فردية كجهود عبد الواحد يحي لذلك كان مصير مجلة « المعرفة » التى أطلقها لسان حاله المعبر عن آرائه الصوفية الفشل والاخفاق ولم يكتسب لها الذيوع والانتشار ولم تجد فى مصر الإقبال الذى كان يرجوه . . فتوقفت عن الصدور .

ولم تلن قناة الشيخ عبد الواحد بعد أن احتجبت المعرفة ، عن الظهور . . فأخذ يؤلف ويكتب المقالات

ويراسل الصحف ويرسل الخطابات إلى جميع الهيئات العالمية في جميع بقاع المعمورة . كان حركة دائمة ، حركة فكرية وروحانية ترسل بسنائها إلى كل من يطلب الهداية والرشاد .

وفى ٧ من يناير سنة ١٩٥١ كان خبر الساعة فى ذلك اليوم هو نبأ وفاة الشيخ عبد الواحد يحي فأذاعته شركات الأنباء وطيرته الاذاعات إلى شتى جهات العالم تعلن أن عبد الواحد أسلم روحه الطاهرة فى القاهرة . وظهرت الصحف فى ذلك اليوم تنعاه تحت عبارات مختلفة منها « حكيم كان يعيش فى ظل الأهرام » و « فيلسوف القاهرة » و « أكبر الروحانيين فى العصر الحديث » وما زالت تطن فى أذن الغرب إلى اليوم حتى لقد خصه الكاتب الفرنسي الشهير « بول سران » بكتاب خاص تناول فيه نواحى عظمته ومناحى حياته مبديا إعجابه به وتقديره له ، وأشادته بذلك الذى هدى أوربا إلى نور الاسلام وأبطل حجج المبشرين . وتكونت الجمعيات فى فرنسا وسويسرا تريد أن تنهج نهجه وتسير على منواله .

ومما يبعث على الأسى والأسف أن هذه الشخصية الالهية ليس لها من مرجع عربى فى المكتبة العربية إلا كتابا واحدا أخرجه عن حياة هذا الفيلسوف المسلم وعن اتجاهاته ومذهبه الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة الانسانية بكلية أصول الدين يضاف إلى هذا المرجع شذرات متفرقة عن حياة ذلك الفيلسوف وتواليفه نشرت باللغة العربية فى مجلة « النادى » الايطالية التى كانت تصدر بالقاهرة سنة ١٩٠٧

هذه هى الخطوات العريضة لحياة رائد من رواد الصوفية الحديثة جهل بعض الشرقيين قدره ، ونقدمه قدوة للدراسة الحرة ومثالا للبحث الخالص الموصل بصاحبه إلى سعادتى الدنيا والآخرى .

للأستاذ

محمود بن الشريف

عذراء باريس : قصة مترجمة عن الفرنسية
الناشر مكتبة الانجلو

- أسماء بنت أبي بكر : طبعة ثانية الناشر مكتبة النهضة المصرية
- نسيبة بنت كعب : » » » » » »
- بدر الغزوة الاسلامية الأولى الناشر مكتبة النهضة المصرية
- خليل مطران الشاعر الثائر الناشر المكتبة العلمية
- القرآن والحياة الجنسية
- تفسير القران الكريم :

بالاشتراك مع الأساتذة :

الدكتور عبد الحليم محمود ، الشيخ عبد الله المشد
الشيخ أبو بكر ذكرى ؛ طه عبد الباقي سرور
الناشر دار الهلال

أمشاج : مجموعة قصص ومقالات صحفية

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهه (ميدان الجيش)

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهه (ميدان الجيش)